الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفلسفة

مذكرة بعنوان:

الفلسفة المادية عند شبلي شميل

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر أكاديمي في شعبة الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة

إعداد الطالبين:
شبيري رؤوف
دحماني دنيازاد

إشراف الأستاذ:
د/ بسي محمد العيد

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة
د/قاسمي عبد الناصر	أستاذ محاضر –أ–	رئيسا
د/بسي محمد العيد	أستاذ محاضر –ب–	مشرفا ومقررا
د/عبد الله الزين	أستاذ محاضر –أ–	مناقشا

السنة الجامعية: 2023 / 2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم الفلسفة

مذكرة بعنوان:

الفلسفة المادية عند شبلي شميل

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر أكاديمي في شعبة الفلسفة

تخصص: فلسفة عامة

إعداد الطالبين :
شبيري رؤوف
دحماني دنيازاد

إشراف الأستاذ:
د/ بسي محمد العيد

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة
د/قاسمي عبد الناصر	أستاذ محاضر –أ–	رئيسا
د/بسي محمد العيد	أستاذ محاضر –ب–	مشرفا ومقررا
د/عبد الله الزين	أستاذ محاضر –أ–	مناقشا

السنة الجامعية: 2023 / 2024

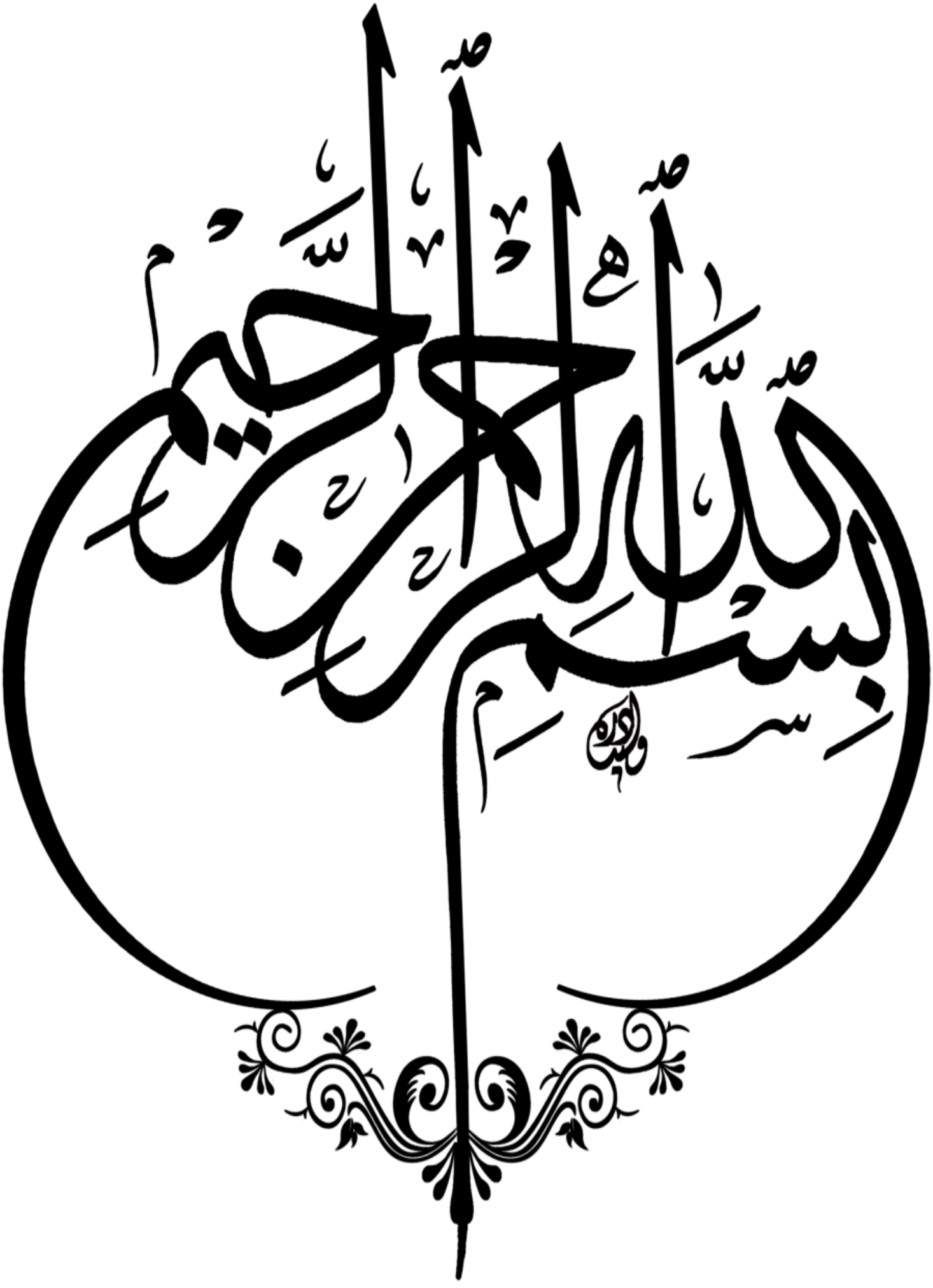
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

الى العائلة الكبيرة ، و العائلة الصغيرة ، الى الابن البكر، البطل محمد اسلام الذي رفض الكثير من أفكار البحث ، الى الزهرات الثلاث : سيدرة ، سلسبيل ، ميسون ، اللاتي وفرن السكون لانجاز هذا البحث ، والى رح أبي " دحماني صالح " و الى كل أساتذة الفلسفة في جامعة الوادي ، وأخص بالذكر : الواقعي بسي محمد العيد ، والإنساني عبد الحفيظ البار ، والفنان بوترعة .

شكر وتقدير

اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، نحمدك ربي ونشكرك على أن يسرت لنا هذا البحث المتواضع . أتوجه بالشكر والتقدير الى الدكتور المشرف ، وأستاذنا الفاضل : بسي محمد العيد ، الذي له الفضل في توجيهنا لهذا الموضوع ، كما نشكره على المساهمة الكبيرة في البحث ، منذ كان عنواناً الى أن صار مذكرة تخرج . كما أتوجه بالشكر الجزيل والخالص الى جميع أساتذة قسم الفلسفة ، بما في ذلك الإداريين الذين أتقنوا حقاً فن الإدارة ، والى جميع الزملاء والأهل والأقارب .

ولا يفوتنا شكر لجنة المناقشة ، على اثراء البحث بملاحظاتهم السديدة ، والى كل من ساهم من قريب أو بعيد نقول له :" شكراً".

الملخص باللغة العربية :

تقوم هذه الدراسة على البحث الموسع في الفلسفة المادية للطبيب الفيلسوف شميل ، الذي بنى ماديته على مقولات النظرية التطورية الداروينية ، فحاول رسم معالم نهضة شرقية بأُسس علمية ، بعيدة عن التفكير الغيبي الميتافيزيقي ، وبذلك عوض الأديان المحرفة الجامدة ، بالعلم التجريبي المتحرك والمتطور ، أهمية هذا الطرح و واقعيته ، جعلنا نختاره كموضوع لدراستنا ، فشميل يقدم لنا مفاتيح النهضة ، تصلح حتى لعصرنا هذا ، الذي فيه العربي لا يزال يتقدم الى الوراء ورأسه مملوءة بالأوهام والغيبيات ، لذلك عمدنا الى تحليل أفكاره ومواقفه الجريئة والمتنوعة ، من خلال ما قدمه في مسيرته العلمية من مؤلفات ، أهمها كتابه " شرح بخنر على مذهب داروين "، الذي هز بأفكاره سكون العقل العربي ، لما تضمنه من تطبيقات شاملة ، لآليات النظرية التطورية المادية ، أهمها التنازع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي، على جميع الميادين الإنسانية ، إلا أن شميل قام بتهذيب هذه الأسس الطبيعية لتتوافق مع مصلحة ومنفعة جميع أفراد المجتمع الواحد ، وبهذه الرؤى يصل شميل كنتيجة حتمية تطورية الى الاشتراكية و النظام الجمهوري الديمقراطي ، كحل طبيعي وعلمي لمشاكل الانسان والإنسانية ، وهنا نصل الى نتيجة مهمة ، هي النزعة الإنسانية لشميل ، حيث جعل العالم كله يعيش تحت سقف واحد ، وفي وطن واحد ، يتعبد فيه الانسان دين واحد يجمع الشمل ويزيل الفرقة والعداوة ، هذا الدين المقدس هو العلم .

Summary

This research study is founded on the extensive research into the materialist philosophy of the physician-philosopher Shumayyil , who built his materialism on the tenets of Darwinian evolutionary theory, and tried to draw the outlines of an oriental renaissance with scientific bases, far from occult and metaphysical thinking, thus substituting rigid, distorted religions with empirical, moving and evolving science, the importance of this proposal and its realism made us choose it as the subject of our study, as Shumayyil offers us the keys to renaissance, valid even for our time, in which the Arab is still advancing backwards with his head filled with illusions and superstitions, so we set out to analyze his ideas and his various bold and diverse positions, through what he presented in his scientific career of his works, the most important of which is his book "Bakhner's Commentary on the Creed of Darwin, whose ideas shook the stillness of the Arab mind, because it included comprehensive applications of the mechanisms of materialistic evolutionary theory, the most important of which is the struggle for survival and natural selection, to all human fields, but Shumayyil refined these natural foundations to comply with the interest and benefit of all members of the one society, and with these visions, Shumayyil

reaches As an inevitable result of evolutionary inevitability to socialism and the democratic republican system, as a natural and scientific solution to the issues of man and humanity, and here we reach an important result, which is the humanism of Shumayyil , where he made the whole world live under one roof, in one country, in which man worships one religion that unites and eliminates division and enmity, this sacred religion is science.

الفهرس

مقدمة:.....أ

الفصل الأول : ..... هـ

شميل، حياته وعصره ، وأهم روافد فكره..... هـ

المبحث الأول : نبذة عن حياة شميل وأعماله : 7

المطلب الأول : حياة شميل 7

المطلب الثاني : أعماله :..... 9

المبحث الثاني :ظروف عصره :..... 11

المطلب الأول : شميل وهجرة الشوام 11

المطلب الثاني :شميل و سؤال النهضة 13

المبحث الثالث : المادية الداروينية في فكر شميل : 17

المطلب الأول : المادية 17

المطلب الثاني :الداروينية 19

الفصل الثاني :..... 24

فلسفة النشوء المادية لشميل 24

المبحث الأول : أصل الكون و منشأ الحياة..... 26

المطلب الأول : أصل الكون..... 26

المطلب الثاني : منشأ الحياة 29

المبحث الثاني : أصل الانسان ومنشأ الأخلاق 32

المطلب الأول : أصل الانسان..... 32

المطلب الثاني : منشأ الأخلاق 35

المبحث الثالث : أصل الاجتماع الانساني ، و منشأ الأديان..... 38
المطلب الأول : أصل الاجتماع الإنساني 38
المطلب الثاني : منشأ الأديان 40
الفصل الثالث : 45
الفلسفة المادية التطورية لشميل 45
المبحث الأول : قداسة العلم الطبيعي واصلاح التربية والتعليم :..... 47
المطلب الأول : قداسة العلم الطبيعي 47
المطلب الثاني : اصلاح التربية و التعليم 50
المبحث الثاني : القواعد السياسية للحكومة ، وعلمانية الدولة 54
المطلب الأول : القواعد السياسية للحكومة 54
المطلب الثاني : عَلمانية الدولة 56
المبحث الثالث : جمهورية شميل ، وحتمية الاشتراكية 61
المطلب الأول : حتمية الاشتراكية 61
المطلب الثاني : جمهورية شميل 66
خاتمة:..... 72
قائمة المصادر والمراجع..... 75

مقدمة

مقدمة:

نظرت الفلسفة منذ القدم الى يومنا هذا ، للإنسان على أنه ثنائية ، المركب الأول فيها معنوي وهو النفس ، أما الثاني مادي وهو الجسم ، وهذه الثنائية في تفاعل متبادل ، واستمرت هذه النظرة حتى مع اقتران الفلسفة بالعلم التجريبي ، وقد كانت لقرون طويلة الأولوية والأسبقية ، للنفس على حساب المادة ، فالانسان انسان بروحه وليس بمادته التي يمثلها الجسم ، و الموجود بنفس وظائفه عند الحيوان ، هذه النظرة الروحية جعلت الانسان في مرتبة الشرف في سلم الموجودات ، وما دعم هذا الزعم مختلف الأديان التي صورت الانسان على أنه من عجينة مفارقة للمادة ، مما أدى شيوع الفكر الروحي الميتافيزيقي ، فالقول الأول والأخير للروحانيات التي تجسدت في رجال الدين ، هذا الأمر جعل الشعوب تتجرع الويلات من شر وقهر الأنظمة المستبدة .

أوروبا ومن خلال بعض فلاسفتها الذين مالوا كل الميل للمنهج التجريبي القائم على الملاحظة الحسية ، ومن خلال مُصلحيها ، قلبت المعادلة ، فأصبح ما هو مادي أولى وأسبق من ما هو روحي ميتافيزيقي ، وفي بعض الأحيان تم إلغاء هذا الجانب المعنوي المجرد من المعادلة كلية ، فأصبح الانسان ما هو إلا مادة من الطبيعة ، والذي يدعم هذه المعادلة ليس رجال الدين ، بل العلم التجريبي . هذه الثورة في المفاهيم والأفكار ، حقق لأوروبا النهضة والتقدم ، وقف أمامها العقل العربي مصدوماً و منبهراً ، وأحدثت أزمة حقيقية في كيانه ومقدساته ، فإذا أراد بلوغ التقدم ، وجب عليه أن يُضحي بدينه ويقدمه قرباناً للمادية العلمية .

هذا الاتجاه تعرض لهجوم عنيف من طرف دعاة الأصالة الروحية ، وأصحاب الإصلاح الديني ، وأبرز مفكر عربي جاهر بتعويض الدين المُحرف بالعلم الصحيح ، ولم يَخَف مما سيجنيه من أفكاره ، هو شبلي شميل ، الذي عُد رسول الفكر العلمي الى اللغة العربية في العصر الحديث ، و النهضة التي أراد بناءها قائمة على القوانين العلمية المستمدة من نظرية التطور الداروينية ، التي تبناها شميل وارتكز عليها لتبرير وتفسير كل الموجودات الى المادة وفقط ، أما الروح والنفس والعقل والإرادة والأخلاق ... ما هي إلا تجليات للمادة وقوى ناتجة من حركة أجزائها الدقيقة ، وما الانسان في أصله إلا نتيجة تطور المادة ، مثله في ذلك مثل الحيوانات والنباتات ، فكل الكائنات تشترك في أصل طبيعي واحد هو المادة ، وبهذا زالت الثنائية ، وكل قوة ثابتة مفارقة للمادة التي تسير الانسان من خلال الشرائع الثابتة ، لأنها من

سلطة السماء وقداسة الدين ، وبفضل سلطة العلم أصبحت حقيقة الإنسان أُحادية قابلة للتغيير والتطور، أين يمكن للإنسان أن يصنع مصيره بنفسه ، ويُطور من شرائعه ومجتمعاته .

1-إشكالية البحث : تتمحور إشكالية البحث ، التي انبنى عليها موضوع الدراسة "**الفلسفة المادية عند شبلي شميل**" كالآتي:

- **ماهي مرتكزات الفلسفة المادية عند شميل ؟ وكيف استخدمها لتفسير الكون ومختلف مظاهره ؟ وهل هذه المبادئ المادية قادرة على خلق مجتمع انساني متطور ؟**

وقد ارتأينا تجزئة الإشكالية المحورية الى مشكلات فرعية تساعدنا على تحليل وفهم الإشكالية الكبرى ، وفي مقدمتها :

- من هو شبلي شميل وما هي أبرز أعماله ؟ وماهي ظروف عصره ؟ وماهي أهم روافد فكره المادي ؟
- كيف فسر أصل الوجود والحياة ؟ وما هو أصل الانسان ؟ وكيف انتظم في مجتمعات ؟ وما أصل الأديان والأخلاق عند الشميل ؟
- كيف استخدم شميل قوانين التطور ، كأدوات لبناء نهضة عربية ؟

2-أسباب اختيار الموضوع: هناك دوافع موضوعية وأخرى ذاتية ، فالموضوعية تتمثل في :

- إيمان شميل بالعلم المخبري ، وجعله مفتاح النهضة العربية ، هو ما شدنا للموضوع ، لأن ما دعا إليه هو أكثر من ضرورة للنهوض بالأمم في وقتنا الحالي .
- اعتماد فلسفته المادية على النظرية الداروينية التي من خلالها حاول ايقاظ الانسان العربي المتشبع بالروحانيات ،هذا ما يثير الغرابة في آراءه ،وتجعلك تحاول فهم هذا الفيلسوف .

أما الأسباب الذاتية تتمثل في :

-حب الاطلاع على غرابة أفكار هذا الفيلسوف ، والتي بعد البحث فيها ، وجدناها منطقية وضرورية .

- أغلب الجامعات الجزائرية ، وخاصة جامعة الوادي ، مكتباتهم محرومة من فلسفة شميل.

3- أهداف الدراسة : الغرض من هذه الدراسة هو التطرق لأهم المواضيع التي تناولها شبلي شميل ، من منطلق فلسفة مادية ، لا تؤمن إلا بالعلم ونتائجه المخبرية ، وكيف أنه حاول اصلاح الأمة العربية من خلال الحث على نهضة علمية علمانية .

4- هيكلة البحث : للوقوف على مختلف جوانب هذ الدراسة ، تم تقسيم البحث الى ثلاثة فصول ، والتي بدورها تنقسم الى ثلاثة مباحث ، وفي كل مبحث نجد مطلبين ، على النحو التالي :

الفصل الأول : تناولنا في الفصل الأول نبذة عن حياة شميل ، وتم التركيز على بعض المواقف التي ساهمت في بلورة فلسفته المادية ، ثم ذكرنا أهم انتاجاته الفلسفية والعلمية والأدبية ، أما في المبحث الثاني تم التطرق فيه الى أهم مشكلات عصره ، والظروف المحيطة به ، والتي جعلته يدلو بدلوه العلمي فيها ، أما المبحث الثالث ، فقد تم تخصيصه لأهم الروافد التي أثرت في فكره ، فعرجنا على المادية من حيث المفهوم والتطور التاريخي وأهم المبادئ ، وتم التركيز على أهم ركيزة في فلسفة شميل المادية وهي النظرية التطورية لداروين ، حيث تُعتبر مركز ثقل فكره ، لذلك عرفنا هذه النظرية العلمية وشرحنا قوانينها ، التي استخدمها شميل بعد ذلك في بناء كل فلسفته التنويرية.

وفي **الفصل الثاني** : تم التركيز فيه على أهم المواضيع التي بحث فيها شميل ، عن أصل الوجود و المظاهر المختلفة فيه ، لذلك جاء المبحث الأول يتحدث عن أصل الكون الذي أرجعه فيلسوفنا المادي الى جزيئات المادة ، ومع قوانين التطور انبثقت الحياة من قوى المادة ذاتها ، أما في البحث الثاني تناولنا فيه تطور الحياة الى أن ارتقت بالوصول الى الكائن الأرقى وهو الانسان ، ثم تحدثنا عن أصل الأخلاق ، أما المبحث الثالث ، فجاء للبحث في أصل الاجتماع و قوانينه ، ثم ركزنا على نشأة كل الأديان والعقائد ، وهذه الفكرة جوهرية في الفكر الإصلاحي و السياسي لدى شميل ، وقد تم ترتيب المطالب حسب فكرة النشوء و التطور عند شميل .

أما **الفصل الثالث** : وفيه أهم الأفكار الإصلاحية والتي تحمل بين طياتها الرؤية النهضوية للعرب والإنسانية جمعاء ، فكان المبحث الأول يتكلم عن العلم الطبيعي الذي اعتبره شميل المفتاح لكل الأبواب المغلقة ، واعتبره الدين الحقيقي للبشرية ، ولنشر هذا العلم وجب اصلاح التربية والتعليم ، وقد أخذ شميل على عاتقه هذه المسؤولية ، أما المبحث الثاني فقد درسنا الشروط السياسية والقضائية التي وجب على الحكومة مراعاتها ، وكذلك فكرة العلمانية التي جعلها شميل فكرة نواتية للتقدم ، أما المبحث الثالث ، فخصصناه للمبدأ المنقذ للمجتمع وهو الاشتراكية ، وكذلك شرحنا فكرة الجمهورية الديمقراطية لشميل ، والتي لا تكون إلا بالحرية القائمة بدورها على العلم الصحيح .

وفي كل فصل وضعت تمهيداً وطرح لمشكلة ، بالإضافة الى نتيجة عامة في نهاية كل فصل ، محاولا الإجابة فيها عن المشكلة المطروحة ، وأنهيت هذه الدراسة بخاتمة ، دونت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من دراسة الفلسفة التطورية الشميلية ، محاولا ترتيبها على شكل تسلسلي تطوري .

5- المنهج المستخدم : قد اعتمدت في دراستي لهذا الموضوع على المنهج التحليلي ، حيث قمت بتحليل أهم المواضيع التي عالجها شميل ، سواء في البحث عن أصل الوجود ، والحياة والانسان وحضارته ، أو من حيث القوانين العلمية المستوحاة من النظرية التطورية لداروين ، كما اعتمدنا على المنهج المقارن الذي لجأ إليه شميل نفسه ، لكي يُثبت آراءه ، و وجدنا أنفسنا نستخدم المنهج التاريخي العلمي عندما بحثنا في أصل المجتمع والانسان والأديان .

6-الدراسات السابقة : بما أن شميل يعد أول من نقل الداروينية الى الشرق ، ورائد من الرواد المصلحين الاجتماعيين الذين تركوا أثرهم في عصرهم ، وفي الكثير من المفكرين من بعده ، إلا أننا نجد في الدراسات السابقة النادرة ، اجحافاً في تناول أفكار هذا الفيلسوف ، رغم اعتماده على المنهج العلمي ، وما وجد منها غالباً ما يكون سطحي وغير كافي .

7-أهم المصادر و المراجع : قد اعتمدنا في انجاز هذه المذكرة على المصادر أكثر من المراجع ، وهذا راجع للأسباب المذكورة سابقاً ، وقد تم التركيز بالأخص على أهم مصدر لشميل ، وهو فلسفة النشوء والارتقاء ، لأن سطوره تتناول مجمل فكر فيلسوفنا ، كما أن هذا الكتاب أحدث ضجة كبيرة ، دون أن ننسى كتاب" الحقيقة " و " كتابات سياسية واجتماعية ".

8- صعوبات البحث : وفي محاولتنا انجاز هذا البحث ، اصطدمنا بالعديد من الصعوبات و العوائق منها :

- نُدرة المراجع التي تتحدث عن شميل ، وما وُجد منها ، تذكره بصفة مُقتضبة وجزئية .
- الدراسات السابقة التي تناولت فكر شميل ، معضمها سطحية وبها الكثير من الأفكار التي تدل على الفهم السطحي له .
- اعتمادنا على مصادر شميل ، والتي وجدنا فكره فيها متنوع وشامل عرضه في المئات من المقالات ، ففي موضوع واحد وجب البحث عنه في الكثير من هذه المقالات .
- أغلب المراجع القلية التي تناولت فكر شميل ، ركزت فقط على الجانب الاشتراكي والعلماني .

الفصل الأول :

شميل، حياته وعصره ، وأهم روافد فكره.

تمهيد للفصل :

المبحث الأول : نبذة عن حياة شميل وأعماله.

المطلب الأول : حياة شميل

المطلب الثاني : أعماله .

المبحث الثاني : ظروف عصره .

المطلب الأول : شميل وهجرة الشوام .

المطلب الثاني : شميل و سؤال النهضة.

المبحث الثالث : أثر المادية الداروينية في فكر شميل.

المطلب الأول : المادية .

المطلب الثاني : الداروينية .

نتيجة الفصل .

تمهيد :

يُعد شبلي شميل أحد رواد النهضة في العالَم العربي ، ويعتبر أول داعية للداروينية و المادية في الشرق العربي ، وأول مفكر عربي نقل أصعب المسائل الداروينية إلى اللغة العربية بكل جرأة وشجاعة وبأسلوب موفق ، وإليه يعود الفضل بإدخال مصطلح فلسفة النشوء والارتقاء في لغة الضاد ، مما يزيد في شأنه العلمي ، أخذ شميل على عاتقه مهمة تغيير العالَم العربي من خلال أعماله المنشورة ، سواء أكانت كتباً أو مقالاتٍ في مجلات أو يوميات. ومن هنا حاولَ تنوير العقول الشرقية من خلال طرح أهم مشكلات عصره ، متجاوزاً العقبات بتسليط الضوء عليها والعمل على اصلاحها ، وفق منهجه العلمي التطوري . ومنه نسأل :

- من هو شبلي شميل ؟
- وكيف عايش الصعوبات والعقبات التي ميزت عصره ؟
- وكيف تبنى الداروينية ، كمبدأ نواتي لفلسفته المادية ؟

المبحث الأول : نبذة عن حياة شميل وأعماله :

المطلب الأول : حياة شميل .

شبلي إبراهيم شميل ، طبيب وفيلسوف وشاعر وأديب ، يعتبر من أوائل النهضة العلمية في العالم العربي[1]، ولد حوالي 1850م ، في قرية كفر شيما بلبنان ، في أسرة مسيحية وسورية الأصل لها باع طويل في العلم والأدب والثقافة .

أبوه "إبراهيم" يعتبر من كبار الأدباء في لبنان في ذلك العصر ، كما أن أخاه "ملحم" كان يعمل مدرسا بالمدرسة الكبرى لليونان الأرثوذكس ، بينما أخوه " أمين" كان محاميا وكاتبا وشاعرا ، وهو مؤسس أول مجلة قضائية عربية ، بالإضافة الى اتقانه اللغة الفرنسية و الإيطالية والتركية واللاتينية ، أما أخيه الأكبر"خليل" ، فقد كان ابنه الأول "سبع" يعمل في التدريس والصحافة ، والثاني "رشيد" صاحب جريدة البصير المصرية ورئيس تحريرها ، فيها نشر شميل عدد كبير من مقالاته ، وثالثهم " قيصر" الصحفي والمترجم .

في هذا الجو نشأ شميل ، والذي يصفه صديقه "صروف" بقوله : " **ولد شميل ببيت لبناني معروف بعلمه وفضله ، وتعودت أذناه وهو ما زال في المهد على سماع الشعر الجميل واللغة الصحيحة . وتمرس عقله على البحث في القضايا وهو لم يزل غضا ، ابناً ما أعظم أباه ، محاطا بخيرة الأخوة** "[2]. كما أن قرية كفر شيما تعتبر مهداً لبعض كبار الكتاب و المثقفين في عصر شميل نذكر منهم عالم اللغة " آل اليازجي" و الصحافي " وسيم تقلا ".

التحق شميل بمدرسة البعثات الامريكية في سن الخامسة ، ثم انتقل الى المرحلة الثانوية الى كوليج سان جوزيف في القيروان ، ثم الكوليج البطرير كية لليونانيين الكاثوليك ببيروت ، وقد رفض شميل الوقت الكبير المخصص للصلاة والعبادة ، والتي كانت ترهق الطالب ، كما أنه كان ناقما على طريقة التدريس التي تولي اهتماماً كبيراً للعلوم الكمالية ، والطرائق المعتمدة في التدريس التي لا تسمح بظهور الشخصية النقدية الحرة والمستقلة[3].

في عمر السابعة عشر ، التحق الشميل بمدرسة الطب بالجامعة الأمريكية سنة 1867م ، وقد قام بتدريسه أربعة من أهم أساتذة الطب والعلوم الطبيعية وهم : "كوزيلي فان ديك" و"جان

[1] عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج1 ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، 2010م ، ص785.

[2] يعقوب صروف ، شبلي شميل ، مجلة المقتطف ، مج 2، د عدد ، القاهرة ، 1971م ، ص298.

[3] شريف زروخي ، فلسفة عربية معاصرة ، مطبوعة جامعية ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 ، الجزائر ، 2018 م ، ص50.

ورتابيه" و"جورج بوست" بالإضافة الى "دانيا يليس" ، حيث كان لهم الأثر العميق في تشكيل فكر شميل المتعلق بالعلم الطبيعي وعلم التشريح واطلاعه على نظرية داروين .

كان لطلاب الجامعة المشاركة الفعالة في عمليات الإنقاذ الطبي في أوقات الكوارث الطبيعية ، كتلك التي شارك فيها شميل باللاذقية على اثر زلزال 1870م ، وبهذه الدراسة في مدرسة الطب التي فيها امتزج الجانب النظري مع الجانب التطبيقي الواقعي ، هذا ما جعل شميل يثور على المناهج التعليمية في الشرق[1] .

في 1871م ، تخرج شميل من مدرسة الطب من ضمن الستة الأوائل ، ثم توجه الى باريس ، هناك تخصص في الدراسات الطبية ، وكانت أطروحته للتخرج كطبيب بعنوان " تأثير الانسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة "[2]، بعدها توجه الى القسطنطينية لاجتياز امتحانه النهائي في الطب الذي أتاح له ممارسة المهنة في سائر الإمبراطورية العثمانية .

في سن الخامسة والعشرين ، اتجه الى مصر واستقر في طنطا حوالي ست سنوات ، فيها بدأ ممارسة مهنة الطب ، واستطاع انجاز الكثير من الكتابات بالإضافة الى مراسلته لأعلام الفكر ومحبيه من المهاجرين الشوام بأمريكا واسبانيا ، وقد نال مكانة رفيعة ، حيث اختاره مواطنوه الشوام ليمثلهم في استقبال الخديوي اسماعيل هناك .[3]

في عام 1885م ، هاجر الى مصر وأصدر بها مجلة الشفاء الطبية ، كما كتب في مختلف المجلات والجرائد منها : مصر الفتاة ، المقتطف ، المقطم ، و الهلال ، و الجريدة . تزوج شميل من أرملة لها ثلاثة أطفال ، وقد تعرف على الأدبية " مي زيادة " وتعمقت صداقتهما الأدبية . في 1909 م ، وفي أعقاب خلع السلطان عبد الحميد وبعد غياب أربعين عاما بسبب الحكم بالإعدام كان قد أصدره عبد الحميد بخصوص شميل ، عاد في زيارة الى وطنه لبنان حيث استُقبل بحفاوة بالغة ، و في عام 1913م أصدر شميل نداء باسمه و باسم صديقه "رفيق بك العظم" الكاتب التركي لتشكيل حزب سياسي باسم " اللامركزية العثمانية "[4].

---

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، ط 1 ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2007م ، ص25.

[2] عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة و الفلاسفة ، ج1 ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، د.ب، 2010م ، ص785.

[3] مجدي عبد الحافظ ، مرجع سابق ، ص25.

[4] المرجع نفسه ، ص26.

لازم الروماتيزم شميل منذ طفولته ، وفي أيامه الأخيرة كانت تراوده أزمات الربو، وعلى اثر أزمة ربوية فاجأته صباح الأول من يناير 1917م ، رحل شميل بعد حياة مليئة بالتأمل الحر والفكر الجريء و الصراع الشريف من أجل العلم و الحقيقة [1].

المطلب الثاني : أعماله :

خلف شميل وراءه انتاجات وثروة فكرية متنوعة ، وله عدة مؤلفات وترجمات تُجسد المنهج التطوري ، نستعرضها كما يلي :

أهم الأعمال الفلسفية و الاجتماعية :

1-فلسفة النشوء و الارتقاء : هو عصارة فلسفة شميل ، و عمدة مؤلفاته ، في367 صفحة قام بترجمة و شرح نظرية النشوء والارتقاء لداروين ، يشمل مقالات من مذهب داروين من أصل الأنواع وتحولها ، نشرت باللغة العربية سنة 1885 م تحت عنوان" **شرح بخنر على مذهب داروين** " ، كما يشمل كتاب " **الحقيقة** " المطبوع سنة 1884 م ، فيه يرد على الرافضين للطبعة الأولى ، كما يتضمن "**مباحث و مناقشات علمية** "بالإضافة الى مقدمتين.

2-مجموعة د. شبلي شميل ، الجزء الثاني : وهي عبارة عن 69 مقالة تقع في341 صفحة ، وهي تعالج موضوعات متنوعة المجالات .

3- آراء الدكتور شبلي شميل : في 44 صفحة يدافع شميل عن آراءه و الرد على مقال نشر بالأخبار.

4- كتابات سياسية وإصلاحية :مختارات من آراء شميل في السياسة والإصلاح ونشر العلم والحرية.

أهم الأعمال العلمية و الطبية :

1-اختلاف الحيوان والانسان بالنظر الى الإقليم والغذاء والتربية : أطروحة التخرج من مدرسة الطب عام 1871م .

2-خطاب في الكهربائية : حيث نشره في مجلة الجنان في نفس عام تخرجه.

3-رسالة في الهواء الأصفر (الكوليرا) : و الوقاية منه و علاجه و تقع في 36 صفحة .

4-الشفاء: مجلة طبية أصدرها شميل بين 1886 و1891م ، تعالج أعدادها جميع أنواع الأمراض.

5-كتاب العلامات لأبوقراط : نشره شميل في مجلة الشفاء سنة 1888 م.

---

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص26.

أهم الأعمال الأدبية :

1-الرجحان : وهو عبارة عن شعر معلق عليه في 23 صفحة ، يعرض فيه شميل مذهبه في النشوء.

2-المأساة الكبرى : هو عبارة عن مسرحية من خمسة فصول ، يدعوا فيها الى التضامن بين الأمم .

3-حوادث و خواطر : و هو عبارة عن مذكرات بأ كتابتها عام 1912 م.

4-الأسطورة دفنيس و خلوي : ترجمها شميل الى العربية من الترجمة الفرنسية للأسطورة اليونانية [1].

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص ص 27-31.

المبحث الثاني :ظروف عصره :

المطلب الأول : شميل وهجرة الشوام .

شميل – بغير شك – واحد من رواد الفكر التقدمي والتطور الاجتماعي ، ومن أبرز المثقفين والمفكرين الشوام* ، تميز عصره بهجرة العقول النيرة ، واشكالية الأصالة والمعاصرة ، والصراع بين الدين والعلم ، في كل هذه الظروف كان شميل صامداً ملوحاً بقلمه في وجه الاستبداد والتخلف والرجعية ، عملاً بمبدئه " **الحقيقة أن تُقال لا أن تُعلم فقط** " [1].

ولعملية الهجرة نوعان متلازمان من العوامل : عامل الطرد الذي يشجع السكان على الهجرة أو يدفعهم قسراً إليها ، وعامل الجذب الذي يستقطبهم لشروط حياة أفضل مما في بلدانهم .

أ – عوامل الطرد :

العوامل السياسية : ان الوضع السياسي المضطرب وزيادة التدهور الأمني وعدم الاستقرار التي ميزت بلاد الشام ، ارتبطت بعاملين أساسيين : الأول يتمثل في نمو حركات قومية معادية للسلطة المركزية ، وجيل من المثقفين ، حملوا على عاتقهم الدعوات الإصلاحية و التحررية ، والمطالبة بحقوق السكان في الولايات الشامية ، متأثرين بأفكار الثورة الفرنسية وما كانت تدعوا إليه من حرية ومساواة ، فانتقدوا الدولة العثمانية ، ودعوا الى الاستقلال السياسي الكامل و إلى الإصلاح أساسه دولة لا مركزية ، والمطالبة بالدستور والحد من صلاحيات السلطان العثماني [2]. أما العامل الثاني ، يتمثل في اصطدام تلك الدعوات مع التوجهات العثمانية ، فكان السلطان عبد الحميد يرى في تلك الأفكار خطراً يتهدد السلطنة العثمانية ، ووصف أصحابها بأنهم عصابة منافقة تنكرت لدينها ووطنها ، لذلك واجههم بسياسة تعسفية متشددة .

وقد ميزت فترة حكم السلطان عبد الحميد بالاستبداد على مدى ثلاث وثلاثين سنة (1876–1909م) ، حيث قام بتعليق العمل بالدستور سنة 1876م ، وحل مجالس النواب

---

* لفظ المهاجرين الشوام استخدم تاريخياً للإشارة الى سكان بلاد الشام ، كما استخدم للإشارة الى من هاجر من المناطق التابعة للولايات العثمانية في بلاد الشام ، خاصةً سوريا و لبنان الى مصر. أنظر : ماهر محمد سعيد درويش ، هجرة الشوام الى مصر . أطروحة ماجستير ، تخصص تاريخ ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، 2003 م ، ص10.

[1] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، د.ط ، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة ، 2015م ، ص07.

[2] رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، د.ط ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، 2020م ، ص22.

، واستتبع ذلك بسلسلة من الإجراءات القمعية ضد المثقفين و النشطاء السياسيين ، فزج بهم في السجون ، و وضع الرقابة على الصحافة و التعليم ، و فرض الغرامات المالية عليهم ، فضلا عن اغلاق الصحف لأسباب واهية ، وإصدار القوانين المقيدة لحرية الرأي و التأليف والحرية الصحافية ، وغيرها من الإجراءات التعسفية أدت الى انعدام الأمن و الاستقرار ، فاستشرى البوليس السري وتوسع جيش المخبرين والمأجورين ، وغدا القمع الوحشي هو الأسلوب الوحيد للقضاء على أصحاب الآراء التنويرية . مما اضطر الكثير منهم الى مغادرة وطنهم مثل : " سليم تقلا " و" أديب إسحاق " و" محمد رشيد رضا " و" عبد الرحمان الكواكبي " و" شبلي شميل "[1] ، الذي يعتبر من أبرز مثقفي بلاد الشام في تلك الفترة ، هاجم المستبدين الأتراك ، وتحدث عن الحرية للشعب ، رافضاً الاستغلال والاستبداد في شتى صوره [2] ، وقد هاجر الى مصر تحت ضغط الملاحقة و الإرهاب العثماني .

العوامل الاقتصادية : تتمثل في تدهور الأحوال المعيشية للسكان بعد تدمر اقتصاد لبنان ، وبالتالي نظامه الاجتماعي ، نتيجة الأزمات الاقتصادية التي شهدتها الدولة العثمانية [3].

العوامل الطائفية : انعدام الامن بسبب النزاعات الدموية بين المسلمين والمسيحيين ، بالإضافة الى السلفية المتحجرة سواء من طرف رجال الدين المسلمين أو المسيحيين ، مما أدى الحجر على عقول الناس[4] .

ب – عوامل الجذب :

تتمثل في التطورات الواسعة النطاق التي شهدتها مصر ، نتيجة الإصلاحات التي انتهجتها ، خصوصاً في عهد الخديوي إسماعيل (1863– 1879م) ونهجه التحديثي الذي اعتمده لبناء دولة عصرية تستلهم النموذج الأوربي في مختلف جوانبها ، من خلال إصلاحات توفر أجواء من الحرية النسبية ، وتنظيم العمل القضاء ، وانشاء المدارس والمعاهد ، كما عمل على تنشيط الصحافة ورعاية العلوم والآداب والفنون ، كما تمتعت مصر بالتسامح الديني ، مما جعلها قبلة للمهاجرين الشوام المسيحيين ، خاصة وأن الخديوي احتاج المثقفين الشوام في

[1] ماهر محمد سعيد درويش ، هجرة الشوام الى مصر ، مرجع سابق ، ص19.
[2] رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1973م ، ص20.
[3] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص18.
[4] المرجع نفسه ، ص19.

محاولة منافسة الدولة العثمانية نفسها ، من خلال الإيحاء بأن مصر وهي التابعة ، تتمتع بثقافة وحضارة ورحابة صدر أكثر من الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليها [1].

وبذلك توفرت الظروف المناسبة للمهاجرين الشوام لمواصلة عملهم الإصلاحي الذي بدأوه في بلاد الشام ، ولعل في رسالة شميل التي بعثها للسلطان عبد الحميد الثاني من مصر سنة 1890م ، ما يعبر عن ذلك بشكل جلي ، حيث حاول من خلالها تشخيص الوضع السياسي ، و التعبير عن المطالب التي ينادي بها السياسيون والمثقفون الشوام ، فجاء في رسالته التي حملت عنوان " **شكوى وآمال** " : " **إن سبب تأخرنا وتداعي الملك هو فقدان العلم و العدل و الحرية في المملكة ، نريد الحرية .... فإذا سلبت الحرية من أمة امتنع العدل ... وإذا انتفى العدل و ساد الظلم فلا جرم أن ينطفئ نور العلم** " [2]، ويدعو شميل في نهاية رسالته السلطان للقيام بأمرين جوهريين ، أولهما اطلاق الحرية ، والثاني تأسيس مجلس الأمة من مختلف الأديان و المَوَاطن[3] .

المطلب الثاني :شميل و سؤال النهضة .

يجمع المؤرخون على أن قدوم نابليون بونابرت (1798– 1801م) ، هز جو الجمود الذي كان مخيماً على مصر، وقد اثارت هذه الحملة صدمة حداثية بسبب الفجوة الهائلة بين تقدم و رقي أوروبا ، و بين تخلف وانحطاط الشرق ، ولم يأت نابليون الى مصر بأسطوله العسكري فحسب ، بل اصطحب معه فريق من علماء الطب والهندسة و الجغرافيا و الآثار ، وأحضر مطبعتين احداهما فرنسية و الأخرى عربية ، كما أسس مجمعاً علمياً من أجل البحث و الدراسة [4].

حملت الحملة الفرنسية معها جملة من المفاهيم الجديدة مثل : الحرية ، العدالة ، المساواة وغيرها من القيم التي كانت صادمة للعقل العربي ، الذي كان في وضع تاريخي حرج يستدعي منه أن يختار إما محاكاة الماضي و التراث ، وإما محاكاة الحداثة الغربية ، وبهذا طُرح سؤال النهضة في الفكر العربي الحديث مفاده : لماذا تأخرنا نحن العرب ، نحن المسلمون ، نحن

---

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص19.

[2] شبلي شميل ، كتابات سياسية و اصلاحية ، تج أسعد رزوق ، ط1 ، دار الحمراء ، بيروت ، 1991م ، ص09.

[3] المصدر نفسه ، ص21.

[4] حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، المجلد الثاني ، ط1 ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث ، المملكة العربية السعودية ، 2012م ، ص ص495-460.

الشرق ؟ وتقدم غيرنا أوروبا ، المسيحية ، الغرب ؟ وبالتالي كيف ننهض ؟ وكيف يمكن اللحاق بركب الحضارة الحديثة ؟ [1].

وفي المحاولة الإجابة على هذا السؤال ، افترض السلفيون الدينيون والقوميون أن نهوض العرب والمسلمين يكون بالرجوع الى التراث القديم الذي يحتوي كل شيء ، فهم يمتلكون تراثاً ثقافياً حياً في نفوسهم وعواطفهم وعقولهم ، تراثاً هو من الحضور والثقل على الوعي و اللاوعي بصورة قد لا نجد لها نظير في العالم المعاصر[2]، وما عليهم إلا الرجوع إليه لأن فيه حل لكل المشاكل ، فلا يتقدم الحاضر إلا بالرجوع للماضي ، وذلك لأن التاريخ في تقهقر مستمر وقمته كانت في الماضي . ويرتبط دعاة الأصالة ، بالنموذج الإسلامي لأن الإسلام جاء لتصحيح الخرافات و الوقوف ضد المادية و لبناء مجتمع نموذجي للإنسان ، ولأن الرسول (ص) هو الأسوة الحسنة و يأتي من بعده رجال من أفضل الخلق .

و بهدف النهضة الإسلامية ، ظهر اتجاهين : التجديد الديني و الاحياء الإسلامي ، ولهذه الاتجاهات مواقف متعددة من العودة الى الأصول الإسلامية الأولى ، من التمسك الشديد بالعقيدة الإسلامية واعتبارها حجر زاوية للإصلاح السياسي ، والجامعة الإسلامية لدى "الأفغاني" ، الى الاتجاه للإصلاح الديني والاجتماعي ، مع فهم مبادئ الإسلام على حقيقتها لدى "محمد عبده" ، الى التركيز على الإصلاح الديني مع الدعوة الى الخلافة لدى "رشيد رضا" ، الى العودة الى شمولية الإسلام وإقامة الدولة الإسلامية من خلال جيل مسلم لدى "حسن البنا" ، وإلى الدعوة الى الحاكمية والقول بجاهلية المجتمعات المعاصرة ، والدعوة الى إقامة نظام إسلامي انطلاقا من الحاكمية الإلهية لدى "سيد قطب" ، الى الدعوة الى اعتزال المجتمع الكافر في حال الاستضعاف ، ثم العودة إليه لإقامة الدولة الإسلامية عند التمكن كما هو الحال عند "شكري مصطفى" [3].

ولعل أبرز الدعوات التي علا شأنها في علاقة التنافر بين الإسلام و الغرب ، هي تلك التي تقوم على أن الغرب يقوم على إضفاء سمة شيطانية على عدو مفترض ، يُبرر من خلاله جرائمه ، وكان الاتحاد السوفياتي السابق يقوم بدور هذا العدو ، وكان لابد بعد انهياره البحث

[1] محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ،1990م ، ص21.

[2] المرجع نفسه ، ص ص33-34.

[3] أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، الجزء الثاني ، ط1 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، د.ب ، 1995م ، ص537.

عن عدو آخر ، وهو الآن الإسلام ، والذي لا يُشكل أي تهديد ، ولكنه سيكون تهديد آتٍ ، فليس الإسلام فقط هو من يرفض الغرب ، بل الغرب نفسه يرفض الإسلام ، حيث افترضه كعدو بدلاً من الشيوعية ، لذلك من غير المعقول أن يكون هناك من يدعو الى نهضة تأتي من جانب من يعتبرنا عدو له ، وهدفه الرئيس هو اضعافنا .[1]

وكما ارتبطت الأصالة عند البعض برفض المعاصرة ، ارتبطت المعاصرة أيضا برفض التراث ، التي رأى فيها رواد التيار العلمي إعاقة للحاق بالعصر وعلومه ، وهو ما ينادي به شميل حين صرح :" **بأن ما يعتبره الجمهور حتى اليوم كنوز الأمة ، هي في الحقيقة آثار مخلدة لضلال الانسان ... أوليس من العار أن ترى الانسان حتى الآن مشغولاً عن حاضره بماضيه يبني عليه مستقبله** " [2]، فالرجوع الى الوراء لا يفيد ومثله في ذلك حسب شميل مثل الذي يمشي الى الأمام وهو ملتفت للوراء، وبهذا يعلن عداءه للتراث بمفهومه النهضوي .

في هذا الجو المفعم بالاعتزاز الإسلامي و القومي ، لم يتردد شميل في عرض آراءه الجريئة الداعية للعلم ، وبهذا حدث تصادم بين الدين و العلم ، خاصةً أن مقال نشر في مجلة " المقتطف " أكد أن موضوع دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس صار أشهر من نار على علم ، وتحققت صحته لكل ذي عقل سليم يطالع ويفهم .[3]

و تنفجر ضجة عنيفة بين رجال الدين الذين يؤكدون بأدلة دينية ثبوت الأرض وأنصار العلم الحديث الذين يؤكدون عدم مخالفتهم للدين ، وخلال هذا الصدام ، يصل شميل للقاهرة ليفجر الموقف كله بصيحات مدوية شجاعة مدافعاً عن العلم ، ويصدر كتاب " فلسفة النشوء و الارتقاء " الذي يعتبر أقوى ما كتب ، وهو ترجمة لكتاب بُخنر * " ستة محاضرات حول نظرية داروين **" [4] .

---

[1] عبد الله علي عمران ، التيار العلمي في الفكر العربي ، جامعة عمر المختار ، أطروحة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، ليبيا ، 2008م، ص117.

[2] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م ، ص ص50-51.

[3] حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، مرجع سابق ، ص594.

* لودفينغ بوخنر أو بُخنر (1824-1899م) ألماني ، يُعرف بكتابه "القوة و المادة"، ونظريته الواحدية التي ترد القوة للمادة ، والقوة هي حركة المادة ، كما يقول عن المادة أنها قديمة وليست مخلوقة. أنظر : عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج1 ، مرجع سابق، ص329.

** تشارلز روبرت داروين (1809-1882م) عالم أحياء انجليزي ، عمل كباحث أحياء على سفينة خرجت في رحلة حول الأرض مدتها خمس سنوات ، جمع خلالها الملحوظات و المعلومات ، ما كان الأساس الأول لنظريته في الارتقاء الأحيائي ، أصدر "أصل الأنواع" ، " تسلسل الانسان" ، و كان لنظريته التطورية ، ردود فعل عنيفة في كل المجالات . أنظر : المرجع نفسه، ص566.

[4] رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، مرجع سابق ، ص 16-17.

ويثور الكل على شميل حتى أخلص أصدقاءه ، رغم أنه لم يطبع من الكتاب إلا خمسمائة نسخة لم تنفذ إلا بعد خمس عشرة سنة ، فيقول " **هذه الرجة التي حصلت حينئذ هي المقصودة مني في ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق ، والحركة مهما كانت خير من السكون** " [1]، فنظرية التطور لم تكن سوى طريق لزحزحة الأفكار في المجتمع لتسهيل تطوره وارتقائه والإطاحة بالمستبدين ، وبهذا يتحول العلم الى سياسة ، ولعل هذا هو السبب في الهجوم الذي تعرض له شميل .

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص13.

المبحث الثالث : المادية الداروينية في فكر شميل :

المطلب الأول : المادية .

لقد كان شميل مفكراً مادياً قبل كل شيء ، يرى أن الحقيقة كلها تكمن في المادة ، متأثراً بتعاليم الانجليزيين "هكسلي" *و"سبنسر"**، والألمانيين "هيكل"*** و" بُخنر" في ماديته الصارمة[1]، القائلة بالارتقاء والتطور، وهذا ما دفعه الى ترجمة أفكار بُخنر والتعليق عليها ، متوقفاً لزوماً ، أمام داروين ، الذي كان موضوع بُخنر الأساسي ، وإذا كانت مقولة التطور هي الوجه الأساسي في نشاط شميل النظري ، فقد كانت فكرة المادة هي الوجه المسيطر فيه ، الأمر الذي يُوحد بين المادية والتطورية توحيداً لا انفصال فيه[2].

والمذهب المادي هو المذهب الذي يُفسر كل شيء بالأسباب المادية ، ويُطلق في عالم ما بعد الطبيعة على مذهب الذين يقولون أن المادة وحدها هي الجوهر الحقيقي ، الذي به تُفسر جميع ظواهر الحياة وأحوال النفس ، فالمذهب المادي بهذا المعنى مقابل للمذهب الروحي ، الذي يُثبت وجود جوهر مستقل عن المادة وهو الروح ، وفي علم النفس يُطلق على جميع أحوال الشعور على أنها ظواهر ثانوية ناتجة عن الظواهر الفيزيولوجية المقابلة لها ، أما في علم الأخلاق ، المادية تقول أن غاية الحياة هي الاستمتاع بالخيرات المادية وحدها ، أي أن الاخلاق نفعية[3].

إن كلمة مادة قد تبدو لأول وهلة وكأنها كلمة واضحة ، ولكن الأمر أبعد من ذلك ، فالشيء المادي هو الشيء الذي كل صفاته مادية : حجمه ، كثافته ، كتلته ، لونه ، سرعته ، صلابته ، كمية الشحنة الكهربائية التي يحملها ، سرعة دورانه ، درجة حرارته ، مكان الجسم

---

[1] حسين عبد الزهرة الشيخ ، إشكالية العلاقة بين الدين و العلم في الفكر العربي المعاصر ، مجلة كلية الآداب ، العدد 99 ، د.ب ، د.ت ، ص ص571.

* هكسلي توماس هنري (1825-1895م) عالم أحياء انجليزي ، اهتم بالفلسفة وتخصص في الطب ، دافع عن نظرية الارتقاء الأحيائي لداروين ، هلل بالمنهج العلمي ، ورفض الأناجيل و قصة الخلق . أنظر : عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج2 ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، د.ب ، 2010م ، ص1475.

** سبنسر هربرت (1820-1903م) انجليزي ، نشر كتابه الأول "الأستاتيكا الاجتماعية" ، وهو دعوة الى نظرية في الارتقاء تشابه نظرية داروين . أنظر : عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج1 ، مرجع سابق ، ص ص717-718.

*** هيكل أرنست (1834-1919م) أستاذ علم الحيوان ، كان أول عالم أحياء ألماني يهلل لنظرية الارتقاء العضوية ، نشر كتاب "لغز الكون" ، كان مقتنعاً أن أبسط المواد البروتوبلاسمية تتولد عن المواد الكربونية غير العضوية ، بالتولد التلقائي . أنظر : المرجع نفسه ، ص1510.

[2] عبد الإله بلقزيز ، الثقافة العربية في القرن العشرين ، ط2 ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2013م ، ص498.

[3] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2 ، د.ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982م ، ص309.

في الزمان والمكان ...إلخ . فالصفات المادية هي التي يتعامل معها علم الطبيعة (الفيزياء) ، فالمادة ليس لها أي سمة من سمات العقل : الغاية ، الوعي ، القصد ، الرغبة ، الأغراض و الأهداف ، الاتجاه ، الذكاء ، الإدراك ...إلخ [1].

والمادية ترى بأسبقية المادة على الانسان وكل نشاطاته ، وتمنح العقل مكانة تالية على المادة ، ولذا فإن العقل ليس له فعالية سببية ، ووجوده ليس ضرورياً لاستمرار حركة المادة في العالم ، فنظرية المعرفة المادية تُقر بأن العالم قابل للمعرفة ، لأنه معطى لإحساسنا ، و لمعرفة هذا العالم لا يحتاج الإنسان الى استعارة وسائل من خارج عالم الطبيعة المادي ، فهناك أولاً حواسه الخمس التي ترصد المحسوسات ، وهناك عقله الذي يُرتب ويُركب المحسوسات، ولكنه ليس منفصلاً عن الوجود المادي الحسي ، فالمعرفة هي انعكاس الواقع الخارجي في دماغنا عبر احساساتنا ، وتراكم المعطيات الحسية على صفحة العقل البيضاء[2].

فالمادة هي الحقيقة المطلقة ، أزلية أبدية ، لم يخلقها أحد ، ولا توجد في هذا العالم أية قوى غيبية لا تخضع لقوانين الطبيعة ، ويفسر أصحاب المذهب المادي كل شيء بأسباب مادية ، وهذا المذهب قديم في تاريخ الفكر الفلسفي ، عندما فسر "طاليس" الكون بأصل مادي هو الماء ، أو الهيولي اللامحددة عند "انكسمندر" أو الهواء عند "انكسمانس" أو النار كما يقول "هيراقليطس" . وتنتشر المادية في فترات من التاريخ و تضعف في أخرى ، إلا أنه من المؤكد أن المذاهب المادية قد ضعف شأنها في أوروبا بعد نجاح الفلسفات العقلية المثالية ، واعتناقها فيما بعد للنصرانية [3].

و إذا قرأنا نص شميل الذي يقول فيه :" **الفلسفة المادية اليوم تختلف كثيراً عن فلسفة الماديين القديمة ، في أنها كانت كفلسفة أصحاب ما فوق الطبيعة نظرية بحتة ، أما اليوم فهي فلسفة قائمة على مبادئ علمية ثابتة** " [4]، يمكننا التمييز بين نوعين من المادية يرتبطان بمرحلتين تاريخيتين مختلفتين : المادية القديمة والمادية الجديدة ، فالقديمة هي التي تستند الى العقلانية المادية ، وتقوم على أن العقل مستقل بذاته ، قادر على الوصول الى القوانين الكامنة

---

[1] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، د.ط ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت ، ص18.

[2] المرجع نفسه ، ص18.

[3] حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، مرجع سابق ، ص ص 337-338.

[4] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص65.

في المادة و تجريدها على هيئة قوانين عامة ، وعندما يُدرك العقل الواقع المترابط أجزاؤه برباط السببية الصلبة و المطلقة ، فإنه يُدرك الكل الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة .

أما المادية الجديدة ، فهي ليست جديدة تماماً ، فقد أدركها السوفسطائيون منذ البداية ، عندما أكدوا أن العالم في حالة حركة دائمة ، وأن العقل غير قادر على الوصول الى الواقع ، و رغم أن المادية الجديدة كامنة في المادية القديمة ، ومع هذا فهي تختلف عنها جوهرياً ، فالمادية الجديدة ليست ثورة ضد الميتافيزيقا الايمانية وحسب ، وإنما هي ثورة ضد الميتافيزيقا المادية ، بكل ايمانها بالثبات ومقدرة العقل على التجريد [1].

وقد أخذ هذا المذهب قوة دافعة بعد نمو الحركة العلمية ، وظهور نظريات نيوتن الطبيعية ، وأفكار داروين التطورية ، فالإنسان كله حزمة من الأعصاب ، والمخ يفرز التفكير كما يفرز الكبد الصفراء . فمنذ ظهور الثورة العلمية وما لحقها من نجاحات علمية والمذهب المادي يعلن ويكرر بأنه الابن الشرعي للعلوم ، فالعلم عندهم كما أنه رديف المادية فهو أيضا رديف الالحاد ، فقامت الوضعية والماركسية على أساس هذا التصور المادي[2].

المطلب الثاني :الداروينية .

تقوم الفلسفة العلمية على أساس إنجازات داروين ، الذي اكتسب شهرته كمؤسس لنظرية التطور ، والتي يعرفها "اندري لالاند" في موسوعته على أنها مذهب يقول أن القانون العام لنمو الكائنات هو التباين ، و هو القانون الذي يمكن بمقتضاه أن تكون قد تكونت على التوالي المنظومة الشمسية ، الأجناس الكيميائية ، الكائنات الحية [3]. والداروينية هي مذهب التحول أو التبدل ، وهو القول أن الأنواع تنشأ بعضها عن بعض ، و لا سيما النوع الإنساني فهو منحدر عن الأنواع الحيوانية التي ترجع إلى أصل واحد أو عدة أصول [4].

و قد رسخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية الكونية ، التي تذهب الى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة وجدت منذ الأزل وستظل الى الأبد ، صدر عنها كل شيء ، خالية من

[1] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، مرجع سابق ، ص ص 29-30.
[2] حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، مرجع سابق ، ص340.
[3] أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تر خليل أحمد خليل ، ط2 ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، 2001م ، ص381.
[4] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، مرجع سابق ، ص556.

الهدف والغاية [1]، وهي تستمر وفق مبدأ التطور ، و يعني التغير في السمات الوراثية وانتقالها من جيل إلى جيل[2].

وحسب شميل فإن الفهم السليم لهذا المذهب يتطلب تقسيمه الى أربعة أقسام ، تمثل هذه الأقسام القوانين الأساسية للتطور ، على مستوى الطبيعة ، وكل الكائنات الحية ، و تطور المجتمعات ، وهي :

1- **تنازع البقاء :**

أي الصراع من أجل البقاء ، فالكائنات الحية تتنازع فيما بينها ، وهو على حالين : الأول الأحياء مع بعضها ، وذلك لتأمين الحاجات كالغذاء والمسكن وغيره ، فنسل الأحياء كثير جداً ، لا يمكن أن تستوعبه بحار العالم ويابسته ، لأن العالم محدود والنسل غير محدود[3]. و الثاني الأحياء مع قوى الطبيعة الصامتة والظروف القاسية و تقلبات المناخ ، بغية التلاؤم معها ، والفائز من هذا التنازع ، للفرد الذي يمتلك صفات الغلبة و البقاء ، سواء الحيوانات أو النباتات ، مثل : اللون – السرعة – الهجوم – الصبر على الجوع و العطش –الصغر –الكبر – الحيلة – الكساء ... و كذلك النباتات مثل : موافقتها مع التربة و احتمالها [4]، وحتى الانسان حيث التاريخ يثبت أن أهل أمريكا و أستراليا المتوحشين انقرضوا لدخول أهل أوروبا بينهم [5] ، و بهذا تصبح المسألة حياة أو موت ، فالمنتصر يبقى لأنه صالح للحياة ، و المهزوم يفنى لأنه غير صالح للحياة .

2–تكوّن التباينات أو تغير الأفراد :

و يعني الاختلاف من جيل الى جيل في اللون أو الشكل أو القوة و إلا امتنعت أسباب التطور ، فمن خلال الصراع تتلاءم بعض الأفراد مع الظروف المحيطة و مقدراتهم الطبيعية وتساعدهم على البقاء ، بينما تعاكس الظروف أفراد آخرين ، إذ أن الكائنات الحية مختلفة حتى افراد النوع الواحد تختلف ضعفاً و قوةً و طولاً و شكلاً [6]، فالطبيعة لا تستخدم القالب الواحد مرتين ، فالأجسام الحية ميالة للتغير و التباين ببعض صفاتها عن الأصل الذي نشأت

---

[1] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، مرجع سابق ، ص101.

[2] شريف زروخي ، فلسفة عربية معاصرة ، مرجع سابق ، ص47.

[3] سلامة موسى ، نظرية التطور و أصل الانسان ، د.ط ،مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، د.ت ، ص13.

[4] مرتضى فرج ، الداروينية ، ط1 ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، 2017م ، ص17.

[5] شبلي شميل ، شرح بخنر على مذهب دارون ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م ، ص99.

[6] مرتضى فرج ، مرجع سابق ، ص17.

منه ، و لذلك لا يتم التشابه كل التشابه بين الآباء و الأبناء ، ولا بين الأصول و الفروع ، و لا يوجد شبه يجمع فردين و لا ورقتان على شجرة واحدة ، و هذا التحول و التغير هو قانون عام يسمح في تحسين الحيوانات والأثمار والأزهار[1].

3-انتقال التغيرات في النسل بالوراثة :

لها دور مهم في الحراك التاريخي الارتقائي لأن الأفراد القوية والتي فازت في معركة البقاء ، تنقل الصفات الوراثية الى الأبناء ، حيث تتراكم على مدى الملايين من السنين تلك الميزات الصغيرة التي تميز الأفراد الناجحة في الحياة ، و يرثها أبناؤها منها بتسلسل لتصبح صفات جوهرية تظهر في الأنواع ، بحيث إذا مر مليون عام - مثلا - صار الفرد الأخير كثير الاختلاف عن الجد الأول ، حتى يصير كل منهما نوعاً قائماً بذاته ، و يعترف داروين بأن قوانين الوراثة ما تزال الى عهده سراً مغلقاً ، على العالم أن يكتشف مضامينه مستقبلاً [2].

4-انتخاب الطبيعة والبقاء للأصلح :

أي أن الطبيعة تنتخب ، و تقوم بفرز الأصلح للبقاء لما يملكه من صفات تكيفية إيجابية و تنقلها الى نسله [3]، وهو القانون الذي ترتكز عليه النظرية بأسرها ، أي أن قانون الوراثة ينقل التباينات و جميع الصفات التي يحملها الأصل الى الفرع ، أصلية كانت أو مكتسبة ، وهذه الصفات منها النافع كالقوة و الصحة و الذكاء ومنها الضار كالأمراض و العاهات و الشذوذ ، أما هذه الضارة فتنتهي الى أحد أمرين : إما أن تتلاشى بتغلب النافعة عليها ، و إما أن تتغلب فتؤدي الى ملاشاة صاحبها بذاته أو بنسله ، وأما النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازاً و فائزاً في معركة الصراع من أجل البقاء ، ثم تتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلا بعد جيل ، وبعد مرور ألوف الأجيال ، يبلغ الامتياز حداً يجعل من الفرد الممتاز نوعاً جديداً ، وهذا هو قانون الانتقاء الطبيعي [4] ، وهذا ما يوضحه شميل بقوله : "**إذا سلمنا بهذا التنازع بين الأحياء وجب علينا بالضرورة أن نسلم ببقاء البعض وفناء البعض ... و هذا ما يراد**

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص100.

[2] سلامة موسى ، نظرية التطور وأصل الانسان ، مرجع سابق ، ص14.

[3] أورخان محمد علي ، تهافت نظرية داروين في التطور، ط1 ، دار البشير ، عمان ، 1998م ، ص58.

[4] مرتضى فرج ، الداروينية ، مرجع سابق ، ص18.

بالانتخاب و يسمى طبيعيا إذا كان بين الأشياء من الخارج وبين الأحياء أو بين بعضها البعض و صناعياً إذا كانت بواسطة الانسان " [1].

هذا نفس ما يفعله الانسان مع الحيوانات الداجنة حتى يصل الى صفات مهمة : كإدرار الحليب أو كثرة البيض أو اللحم ، فكما أن الانسان ينتخب الصفات التي يريد بقاءها في النسل ، هكذا تنتخب الطبيعة الاختلافات التي تصلح لتطويل معيشة الجسم الحي و بقاءه ، و تمكنها فيه حتى تصير ثابتة في طبيعته[2] ، لذلك يستغرب شميل من الذين يرفضون هذه المبادئ رغم بساطتها و واقعيتها ...

اقتنع شميل بمذهب داروين اقتناعاً كاملا فيقول :" **ولقد بلغ من الاقتناع بصحة هذا المذهب أني صرت اعتبر مبادئه أوليات لا يجوز أن تخفى على أبسط متعلم و أقل مفكر** " [3]، فهو يصرح بأن ايمانه و دعوته لهذه النظرية هو تأسيس المادية على أساس علمي بعيداً عن الميتافيزيقا والدين ، واعتبارها منهجاً للفكر يتمثل في تطوير الانسان و الإنسانية .

فقد تمسك بالمذهب الدارويني ليس للدفاع عنه لأنه يقوم على حقائق علمية فقط ، بل للدفاع عن ماديته لأن " **القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون** " [4] ، محاولاً إسقاط النتائج التي انتهت إليها هذه النظرية على النظام الديني والسياسي والاجتماعي .

فالداروينية أداة اصلاح ونضال في جميع المجالات ، يستخدمها الشميل من أجل تحرير العقول من الماضي و من الأوهام والخرافات ، فيقول :" **بحيث لا تمر اليوم بالإنسان مسألة جليلة أو حقيرة اجتماعية أو علمية أو فلسفية إلا و نجد لها في هذا المذهب حلا في كيفية نشوئها و تحولها حتى مصيرها أيضاً ...**" [5] ومنه فإن هذا المذهب بحسبه ، مفتاح سحري يفتح أقفال كل شيء في الحياة ومختلف شؤونها و فواعلها و اتجاهاتها الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية .

---

[1] شبلي شميل ، الحقيقة ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م ، ص41.
[2] حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، مرجع سابق ، ص606.
[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص67.
[4] المصدر نفسه ، ص18.
[5] المصدر نفسه ، ص10.

نتيجة :

مما سبق ، يمكن اعتبار شميل أحد المثقفين الشوام الذين لعبوا دوراً أساسياً في الحركة الفكرية في مصر والعالم العربي عموماً ، حيث خاض معارك فكرية وسياسية ، ليس على الجانب النظري فقط ، بل حتى بسلوكه الشخصي ، أظهر فيها شجاعة نادرة ، وهو من القلائل الذين جاهروا بآرائهم التي وُصفت بالغرابة ، الى أن كاد أن يُقال مَثلٌ – أغرب من شميل – وقد أحدثت مواقفه الثابتة صدمة للجمهور ، بل وحتى المثقفين ، مؤمناً أن الحقيقة مهما كانت جارحة أو مغايرة لمقدساتنا ، فالأَولَى بها أن تُقال ، وسلاحه في ذلك العلوم التجريبية ، فمن خلال مقولات النظرية التطورية خاصة : التنازع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي ، فسر شميل كل الموجودات المادية و المعنوية .

الفصل الثاني :

فلسفة النشوء المادية لشميل .

تمهيد للفصل :

المبحث الأول : أصل الكون و منشأ الحياة .

المطلب الأول : أصل الكون.

المطلب الثاني : منشأ الحياة .

المبحث الثاني : أصل الانسان و منشأ الأخلاق .

المطلب الأول : أصل الانسان .

المطلب الثاني : منشأ الأخلاق .

المبحث الثالث : أصل الاجتماع الانساني ، ومنشأ الأديان .

المطلب الأول : أصل الاجتماع الإنساني .

المطلب الثاني : منشأ الأديان .

نتيجة الفصل .

تمهيد :

بعد أن اطلع شميل على النظرية الداروينية ، قام بتحصين مذهبه المادي على قوانين التطور العلمية ، فرجع في بحثه عن الحقيقة الى الأصل الأول لكل مظاهر الكون ، فوجد أن المادة هي الأصل الوحيد والأخير له ، فعمد على دراستها علمياً ، لاستنتاج القوانين الطبيعية التي تحكمت في تطورها ، وجعلتها تُعطي لنا هذا التنوع الهائل في الموجودات الجامدة والحية ، هذه القوانين التطورية فيما بعد يحاول نقلها من علم البيولوجيا الى كل العلوم الإنسانية ، للوصول الى التطور الإنساني في مجتمعه وأخلاق وسياسته . هنا اعتمد شميل على منهج علمي يقف فيه أمام الظاهرة ليسأل : كيف نشأت ؟ كيف تطورت ؟ وما هي القوانين التي تحكمت في نشوئها و تطورها ؟ ونحن بدورنا نسأل شميل :

- كيف نشأ الكون ؟ وكيف نشأت الحياة فيه ؟
- من أين جاء الانسان ؟ وكيف نشأت أخلاقه وتطورت حياته الاجتماعية والدينية ؟
- ما هي القوانين التي تُسير عملية التطور ؟

المبحث الأول : أصل الكون و منشأ الحياة.

المطلب الأول : أصل الكون.

يعود الأصل الأول للكون وكل ما فيه من ظواهر الى المادة ، ولا وجود لقوة قبلها أدت الى تشكل أو خلق الكون من العدم ، مثل ما يزعمه أصحاب الخلق أو ما وراء الطبيعة كما يصفهم شميل ، حيث يتحججون أنه لكل سبب مسبب له ، وهذا ما يؤدي الى فصل القوة الخالقة التي تمثل وجود معنوي سابق ، عن الوجود المادي اللاحق وهو المخلوق ، هذا الفصل مرفوض تماماً عند الماديين ، لأن العقل لا يسلم بخلق شيء من لا شيء ولا زوال الشيء الى لا شيء ، كما أن قولهم بمبدأ السببية ، فإن التسلسل في الارتباط السببي ، يجعلهم يقفون عند نقطة بداية الوجود ، وهنا عوض أن يتجهوا الى الطبيعة المحسوسة ، هاموا الى ما وراء الطبيعة وقالوا بالخلق ، لذلك حسب شميل القوة هي نتاج المادة فيقول :" **لا حاجة بنا أن نعرفك أن العلم قد توصل في الأمور الطبيعية الى هذه النتيجة الكبرى وهي : ان القوة و المادة لا تنفصلان البتة** " [1].

إن القول بأن الكون من تدبير واختيار قوة منفصلة عن المادة ، خلقت الكون لغاية محددة حسب إرادة الخالق ومشيئته ، هو تقييد للعلم وتشجيع للخرافات والأوهام الماورائية ، " **بينما القول بالنشوء الاضطراري على مبدأ التوحيد الطبيعي يحملنا على حث مطايا البحث والتنقيب ... فينفسخ أمامنا للعلم مجال لا يقف عند حد** " [2]، فالمسألة هنا عند شميل مشابهة للماضي ، عندما عجز الانسان عن فهم ظواهر غامضة ، فلجأ الى التفسيرات الخرافية والقوى المجردة ، وبفضل العلم فهم الغامض بإرجاعه لقوى الطبيعة ، مثل الامراض العصبية كالصرع والهستيريا التي عالجها الانسان بالتعذيب اعتقاداً منه أنها ناتجة عن أرواح شريرة ، وإذا فشلوا قاموا بإحراق المصابين ، وبفضل العلم ومعرفته للأسباب الحقيقية ، شفي الكثير من المصابين بالأمراض العصبية ، ونجاهم من المعاملة الشرسة لرجال الدين [3].

فالبحث عن أصل الوجود مهمة العلم وليس الدين أو الفلسفة المجردة ، لأن العلم فيه فوائد عظيمة ، ويعتمد على الأدلة والوقائع الحسية التي تقر أن المادة وتحولاتها وتغيرها

---

[1] شبلي شميل ، الحقيقة ، مصدر سابق ، ص262.

[2] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص71.

[3] المصدر نفسه ، ص72.

المستمر عبر ملايين السنين ، هو سبب الوجود ، وهذه الأفكار نجدها في المذهب التطوري ، لذلك يصرح شميل بأهمية التفسير العلمي فيقول : " **وما رسخت بي مادية الكون ، حتى بدت لي مزية فلسفة النشوء والتحول العلمية المبنية على مبدأ التوحيد الطبيعي** " [1].

و يُقصد بالتوحيد الطبيعي أو الواحدية المادية ، توحد الانسان بالطبيعة ، بحيث يُرد كله الى مبدأ واحد كامن في الكون ، ومن ثم فإن عالمنا المادي لا يُشير الى أي شيء خارجي عنه ، فهو عالم لا ثغرات فيه ولا مساحات ولا انقطاع ولا غايات ، تم إلغاء كل الثنائيات داخله (وضمنها ثنائية الخالق والمخلوق ، الانسان والطبيعة ، الأعلى والأدنى) ، وتم تطهيره تماماً من المطلقات و القيم ، وتم اختزاله كله الى مستوى واحد يتساوى فيه الانسان بالطبيعة ، هو مستوى القانون الطبيعي أو المادة [2].

وحسب شميل المادة والقوة متصلتان ، فالمادة لا تُعرف إلا بالقوة والقوة لا تعرف إلا بالمادة ، فلا يمكن للعقل أن يتصور مادة من غير قوة الألفة ، والتي يقصد بها قوتي الجذب والدفع التي تمثل رباط يؤلف صور الأجسام ، وبدون هذه القوتين لا تكون لدينا مادة ، وهذا معنى قوله " **إن صفات المادة اذا حللت الى بسيطها دلت على خاصيتين أو قوتين وهما الجاذبة و الدافعة** "[3] .

كما أن القوة هي خاصية أو حالة من حالات حركة واهتزاز المادة ، لأن القوة كامنة في المادة غير مفعلة ، وعند تنبيهها تظهر، ولا تستطيع أن تظهر إلا من خلال المادة ، مثال ذلك : القوة المغناطيسية و الكهربائية لا يمكن تصورها بلا مادة الحديد ، وحتى الحرارة و الصوت ما هي إلا تغيرات للأجزاء الدقيقة المكونة للمادة على شكل اهتزازات ارتجاجية و تموجات ، لذلك " **لا يمكن ادراك القوة بلا مادة كما أنه يستحيل البصر بلا عين أو الفكر بدون دماغ** "[4]، و بهذا يؤكد شميل علمياً أنه لا وجود لقوة ابدعت الوجود من العدم لأن العدم أصلاً غير موجود ، وكل ما هو موجود إنما هو نتيجة لتحولات المادة والقوة الكامنة فيها .

و يرتكز شميل على العلم لإثبات رأيه ، فعلماء الطبيعة يذهبون الى أن مادة الكون مؤلفة من أجزاء دقيقة جداً في غاية الصغر لا تقبل القسمة ، أطلقوا علها اسم "جواهر فردة" ، وهذه

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص70 .
[2] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، مرجع سابق ، ص39.
[3] شبلي شميل ، الحقيقة ، مصدر سابق ، ص266.
[4] المصدر نفسه ، ص263.

النتيجة ليست حدسية مثل ما قال به "ديمقريطس" قديماً ، بل هي لازمة لحقائق علمية حتى وإن كان العلماء لم يروها[1]. " **فلا بد إذاً للطبيعي ولطالب الكيمياء** – حسب شميل – **من التسليم بالجوهر الفرد ولو صعب عليه تعيينه ، كما أنه لابد لطالب علم الهندسة من التسليم بالنقطة ولو صعب عليه تعيينها** " [2].

فمن الواجب التسليم بالجواهر الفردة لموافقتها للعلوم الطبيعية خاصة الكيمياء ، لأن التركيب الكيميائي لأي مادة دائماً يكون على نسب معينة ، فالهيدروجين يتحد مع الأكسجين على نسبة (2) و(1) فيركب الماء ، وإذا تغيرت هذه النسب تؤدي الى مركبات مختلفة ، و هذه النسب دائماً كنسبة (1) الى (1) أو(2) أو(3) أو(4) وهذا إن دل على شيء ، فإنه يدل على أن في المادة أجزاء دقيقة منفصلة تؤلفها عن طريق خاصية التجاذب والتدافع ، وهذا ما صرح به شميل بقوله :" **قوى تتجاذب مُتبايناتها و تتنافر مُتشابهاتها تتحد بها أجزاء المادة صنوفاً** "[3].

والجواهر الفردة في حركة لولبية مستمرة على شكل زوابع في الأثير* أو الهيولي** ، وهي مخزن لطاقة عظيمة ، إذا تم تحريرها تلاشت ماديته في الأثير الذي لا يتلاشى و هو باق ، لأنه الجوهر الأصلي للكون ، وهذا مقصد قول شميل :" **هيولي تملأ الفضاء متحركة حركة دائمة ، لا أول لها يُعرف و لا آخر يُوصف ... زوابع تثور ، فتتحول جواهر تتضامُ دقائق فذرات فأجساماً فأجراماً** " [4].

---

[1] شبلي شميل ، الحقيقة ، مصدر سابق ، ص312.

[2] المصدر نفسه ، ص313.

[3] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، دط ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة ، مصر ، 2020 م ، ص74.

* الهيولي أصلها اليوناني hule ، والمصطلح من وضع أرسطو ، انتهى إليه من تحليل التغير ، والهيولي ليست موضوع معرفة ، ثم هي ليست من بين المقولات ، إذ أن هذه تحمل عليها ، في حين أنها هي لا تحمل شيء ، انها مجرد قوة في مقابل الصورة . أنظر: مراد وهبه ، المعجم الفلسفي ، د.ط ، دار قباء الحديثة ، القاهرة ، 2007 م ، ص ص668-669.

** الأثير لفظ معرب من اليونانية aither يدل على مادة الأجرام السماوية ، وهي مادة لطيفة للغاية ، لا تفسد ، ويسمى الأثير بالعنصر الخامس ، تميزاً له من العناصر الأربعة الخاضعة للكون والفساد ، وهي الماء والهواء والتراب والنار ، وقد استخدم هذا المصطلح في القرن التاسع عشر ، عندما احتاجت نظرية الكهرومغناطسية الى وسط تنتشر فيه الموجات . أنظر: مراد وهبه ، المعجم الفلسفي ، مرجع سابق ، ص22.

[4] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص74.

المطلب الثاني : منشأ الحياة .

إن الحياة خاصية من خصائص المادة و هي ناتجة من تفاعلاتها ، وبهذا يعارض شميل والماديين أصحاب المذهب الحيوي ورجال الدين ، الذين جعلوا الحياة قوة منفصلة عن المادة تدخل الجسم المادي وتسكن فيه بطريقة غريبة وعجيبة ، وتغادر منه الى وجهة غير معلومة ، هذه القوة الحيوية و التفسيرات الميتافيزيقية يرفضها شميل ، ويربط الحياة بقوانين المادة التي يمكن دراستها علمياً فيقول :" **القوة ملازمة للمادة وكل قوة ملازمة للمادة طبيعية ، والحياة قوة ، فالحياة ملازمة للمادة ، إذاً الحياة قوة طبيعية** " [1].

ويرجع شميل الحياة للمادة ، لأن الأجسام الحية عند تحليلها الى عناصرها الكيميائية ، نجد كل مكوناتها موجودة في العالم المادي أي في الطبيعة ، كما أن أهم وظائف الحياة مثل : التنفس ، الإفراز ، الهضم ، الامتصاص والدورة الدموية ... ما هي إلا وظائف كيميائية خاضعة لقوانين الطبيعة ، وليست ناتجة من قوة وهمية خفية ، لا نعرف كيف دخلت الى المادة ولا كيف اتصلت بها [2].

كما يرد شميل على الحيويين الذين يُعجزون الماديين ، بزعمهم أن قوى الطبيعة تَعجز عن تشكيل مواد عضوية حية من مواد عضوية غير حية ، يُرجع شميل ذلك الى عامل الزمن فقط ، وفي هذا يعتمد على نتائج العلم القاطعة ، حيث أنه سنة 1828م تمكن العالم الأحيائي " دهلر" من اصطناع " الأوريا " العضوية كيميائياً من السيانوجين والنشادر غير العضويين . كما أن علم الكيمياء في تطور مستمر ، حيث نجح في صنع مواد عضوية من غير عضوية داخل المختبرات العلمية مثل : الكحول و الحامض الفورميك و سكر العنب والمواد الدهنية لذلك " **إذا كان مثل ذلك مستطاعاً في المعامل الكيميائية ، فما المانع أن يستطاع أعظم منه في المعمل العظيم الذي فيه تعمل أعظم قوى الطبيعة فيتولد الحي من عناصر المادة تولداً ذاتياً**" [3].

والمكون الأول للحياة عند شميل هو البروتوبلاسما ، الذي أكد علم التشريح أنها جوهر الحياة ، وهي تلك الصورة الهلامية لا جامدة ولا سائلة [4]، بل بينهما في تجانس ، مركبة من

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص372.

[2] المصدر نفسه ، ص 362.

[3] المصدر نفسه ، ص363.

[4] تشارلز داروين ، أصل الأنواع ، تر إسماعيل مظهر ، دط ، مؤسسة هنداوي ، قاهرة ، 2018م ، ص44.

كربون وهيدروجين وآزوت و أوكسجين ونسبة قليلة من الكبريت ومواد أخرى معدنية [1]، وهي في حركة زوبعية دائمة ، خاضعة لقوانين الطبيعة ، " **وعليه فإن كان المراد بمذهب النشوء تولد حي من لا حي بفعل القوى الطبيعية المنتشرة في العالم فهذا يُصعب نقضه و هو كائن بالبروتوبلاسما** " [2].

ومن البروتوبلاسما تنشأ الكرية الحية التي تتنامى بالانقسام مشكلة جميع الاجسام العضوية الحية ، و حسب شميل لا يجب استغراب هذا الأمر لأنه نراه يحدث يومياً فالإنسان يتكون رويداً رويداً من كرية حية واحدة تأخذ بالانقسام ، فـ " **الكرية الحية تتألف من مجاميعها الأجسام الحية كافة والتي فيها أصل كل الحياة** ".

ويعتمد شميل على المقارنة العلمية بين المادة الحية و الجامدة لتأكيد رأيه ، فعند المقابلة بينهما نجد ما يلي :

-المكونات نفسها فالعناصر الكيميائية المكونة للأجسام الحية نفسها في غير الحية ، الفارق فقط في النسبة.

-من حيث القوة فهي نفسها ، فالأعمال الحيوية تحركها نفس القوى الكيميائية في الأعمال المادية .

-من حيث البناء ، كلاهما في الأصل يعود الى أجسام بسيطة جداً .

-من حيث النمو ، كلاهما محدد بقوانين الطبيعة ، فالاجسام غير الحية تنمو بإضافة دقائق على سطحها ، بينما الأجسام الحية تتداخل الى باطنها ، وهذا فارق ظاهري ناتج عن اختلاف كثافة الأجسام فقط [3].

و هذا دليل علمي على أن الأصل واحد وهو المادة ،" **ويكون الجوهر الفرد حينئذ للمادة كالكرية الحية للأحياء ، و يكون الأثير نفسه حينئذ للجوهر الفرد كالبروتوبلاسما للكرية الحية** " [4].

وحسب مذهب التسلسل فإن جميع الأجسام الحية الحيوانية والنباتية بما فيها من اختلاف الأنواع و الفصائل مشتقة من صورة واحدة بسيطة ، منها تفرعت باقي الصور المركبة بحصول

---

[1] شبلي شميل ، الحقيقة ، مصدر سابق ، ص342.

[2] المصدر نفسه ، ص347.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص ص 366-367.

[4] المصدر نفسه ، ص75.

تغيرات مستمرة متتابعة و متسلسلة عبر ملايين السنين من خلال الحركة التي هي اهتزاز أجزاء المادة ، وهذا ما قصده شميل عندما قال : " **فليس لنا إلا أن نتوسع بمذهب التسلسل الذي وضعه داروين حتى آخره ، ونجعل العالم العضوي يشتق من صورة واحدة أصلية بسيطة جداً من الكرية** " [1]، وهذا يلزم أن تكون المادة و قواها أو الحركة شيئاً واحداً فـ " **معدن ونبات و حيوان ... مواد الكل واحدة مرجعها الى الهيولي ، وقواه واحدة مرجعها الى الحركة** " [2]، و التنقلات الأساسية في الطبيعة ثلاثة :

1- الإنتقال من الجماد الى النبات .
2- الانتقال من النبات الى الحيوان .
3- الانتقال من الحيوان الى الانسان [3].

---

[1] شبلي شميل ، شرح بخنر على مذهب داروين ، مصدر سابق ، ص121.
[2] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص74.
[3] توفيق شومر، النشوء و الارتقاء في المقتطف ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 26 ، العدد الثالث والرابع ، 2010م ، ص714.

المبحث الثاني : أصل الانسان ومنشأ الأخلاق .

المطلب الأول : أصل الانسان.

عاش الانسان لفترات زمنية طويلة متمسك بأوهام فندها العلم اليوم ، أول هذه الأوهام أن الأرض ثابتة وهي مركز الكون ، وبفضل علم الفلك أصبحنا على علم أن الأرض تدور حول الشمس وما هي إلا كوكب صغير من ملايين الكواكب السيارة ، و ثاني هذه الأوهام أن الانسان من أصل سماوي وهو سيد المخلوقات وأشرفها ، وما كاد الإنسان يستفيق من الصفعة الأولى ، إلا ولحقتها صفعة أشد منها عن طريق نظرية التطور الداروينية ، حيث جعلت الإنسان ينحدر من سلالة حيوانية ، وهذا معنى يقول شميل : " **اعلم أن الإنسان على رأي هذا المذهب الطبيعي ، هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة** " [1].

وبهذا انهارت الفلسفة النظرية المثالية تحت ضربات الاكتشافات العلمية ، لذلك نجد شميل ربط تطور الأفكار عن العالم بتطور العلم ، فدحضُ مركزية الأرض أدت الى القول بمركزية الانسان ابن الأرض ، والدور الذي قام به علم الفلك و الفيزياء و البيولوجيا في إعادة الاعتبار للعقل الذي استند الى حقائق هذه العلوم كبيراً جداً [2].

و يسرد لنا شميل كيف أن فكرة الإنسان أصله حيوان أثارت اشمئزازه قبل اطلاعه على مذهب داروين ، فالقول بأن جد الإنسان الأول هو قرد ، أمر مقصود من طرف خصوم داروين لتشويه مذهبه وتحقيره ، فأي انسان طبيعي يصل الى مسامعه هذا الأمر إلا ورفضه ، إلا أن مذهب داروين " **لا يقول أن القرد أصل الانسان وأن الحمار أصل الفرس ، بل أن الانسان والقرد والفرس وسائر الأحياء في الطبيعة قاطبة من أصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة ... بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي** " [3]، وليس معنى هذا أن القردة العليا مثل الشامبانزي هي الأصل الذي نرجع إليه ، وإنما المعنى الحقيقي أننا نحن وهذه القردة من أصل واحد ، وبيننا وبينها قرابة وثيقة ، فنحن أبناء عمومة [4].

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص ص16-17.

[2] أحمد برقاوي ، في الفكر العربي المعاصر، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ، المغرب ، 2015م ، ص177.

[3] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص66.

[4] سلامة موسى ، نظرية التطور و أصل الانسان ، مرجع سابق ، ص157.

هذه الأفكار مرفوضة رفضاً تاماً عند أصحاب الخلق وما وراء الطبيعة ، حيث نظروا للإنسان على أنه أعجوبة إلهية ، سُخر له كل ما في الأرض لخدمته ، وهذا ما ينكره شميل لأن نظرية داروين تنقضه من خلال نتائج العلم ، " **فالإنسان يتصل اتصالاً شديداً بعالم الحس والشهادة ، وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح و الغيب** "[1]، وحتى الذين يُسلمون أن الانسان حيوان في الجسم فقط ، أما من حيث الروح فهو لا يخضع لقوانين الحيوانية ، يصدمهم شميل بلسان التطوريين ، على أن المقابلة العلمية بين الانسان والحيوان تثبت انهما سيان جسمياً وروحياً ، والفرق بينهما في النمو والارتقاء فقط.

فَعُمر الإنسان لا يبدأ من خروجه من رحم أمه ، إنما يبدأ منذ ظهور أول خلية في العالم ، أي قبل مئات الملايين من السنين ، ويمكن تلخيص الأدلة العلمية التي تثبت ذلك فيما يلي:

أدلة من الحفريات : وُجد في أقدم الحفريات الأرض حفريات لكائنات بسيطة فقط ، و في الطبقات الأعلى توجد حفريات لكائنات الأكثر تطوراً ، و لا توجد حفريات الثديات و الإنسان إلا في الطبقات السطحية ، وهذا يدل على نمو تدريجي من أدنى الكائنات لأرقاها.

أدلة من الشكل الخارجي و التشريح : تشابه أفراد كل مجموعة من الكائنات الحية فيما بينها تشابه كبير ، فالفقريات تتشابه في أن لها جمجمة تحتوي المخ ، وعمود فقري ، ثم جهاز عصبي في الظهر وقناة هضمية في الوسط ، و بدراسة الأطراف نجد عضو و ساعد و رسغ و خمسة أصابع ، و هذه السمة مشتركة بين الإنسان و الآلاف من الأنواع [2].

أدلة من علم الأجنة : إن جميع الأحياء تبدأ حياتهم بخلية مخصبة ، تنقسم مشكلة جنين ، الذي يمر بمراحل مختلفة تحكي تطور حياتنا قبل بلوغ الإنسانية ، كما أن المراحل الأولى لتطور الجنين تكاد تكون نفسها عند الحيوان و الإنسان ، فالطفل يبدأ حياته مطروحاً كالسمكة ، ثم يزحف ، ويتسلق كالحيوان ذي الأربعة ، ثم يقف منتصباً [3].

أدلة من الأعضاء المتخلفة : مثال الزائدة الدودية هي ضئيلة عند الانسان ، كبيرة عند آكلات العشب ، و لأن وظيفتها تحويل الأخشاب من الأعشاب الى مادة سكرية ، احتاجها الانسان عندما كان يرعى الأعشاب مثل البهائم ، وبتطور طعامه ضَمُرت ، ومنها أيضاً الشعر المغطى

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص18.

[2] سلامة موسى ، نظرية التطور و أصل الانسان ، مرجع سابق ، ص69.

[3] المرجع نفسه ، ص71.

للجسم ، فهو قليل عند الإنسان الحديث لأنه لم يعد له وظيفة التدفئة عند الإنسان الذي بات يستخدم الملابس [1].

أدلة من تحليل الدم و الأنسجة : قد يُصاب الإنسان بأمراض تنقلها إليه حيوانات أدنى منه ، كما قد يعديها هو نفسه مثل : الكَلَب ، الزُهري ، الكوليرا ... ويدل ذلك التشابه بين الأنسجة و الدم في التكوين و التركيب بين الإنسان و الحيوانات الدُنيا ، كما وجد العلم أن السعدان له نفس أعراض الزكام عند الإنسان ، وعندما وضعوا شراب مُسكر ، وبعدما ما جربتها ، هناك من عافه ، فكان أعقل من الإنسان[2].

وبما أن العناصر الكيمائية المكونة له من مواد الطبيعة ، والقوى الحيوية فيه تعمل حسب قوانين الطبيعة ، فإن الإنسان كالحيوان فيزيولوجياً وكالجماد كيمياوياً ، والفرق بينهما فقط بالكمية لا بالكيفية والصورة لا بالماهية ، والعرض لا الجوهر[3]، فيقول شميل :" **فنفس الانسان كنفس الحيوان ، عملٌ من أعمال المادة أي من أعمال الأعصاب والدماغ على حد عمل الهضم في المعدة والإزهار في النبات** "[4].

كما أن كل ما يتميز به الإنسان من عواطف وصفات نبيلة كالمحبة و المودة و الوفاء والحزن والحقد واللذة ...الخ موجودة في الحيوان ، سبب ارتقائها عند الإنسان أكثر من الحيوان ، يرجع الى قانون الانتخاب الطبيعي ، كما أن للإنسان أعضاء وصفات كثيرة متطورة جداً مجتمعة عنده ، بينما هي عند الحيوان متفرقة مثل : حسن الترقيع ، كمال بناء الحنجرة و الدماغ والأطراف ..الخ نتيجته قوة التكلم و كثرة التصور والانتصاب في المشي [5].

و قوة العقل والإدراك موجودة في الحيوان ، فهو يقابل ويستنتج و يتعلم و يتأمل كالإنسان ، لكن الاختلاف بينهما كمي فقط ، فحتى في حظيرة الانسان نجد قوة العقل متباينة و متفاوتة ، فنجد منهم قبائل متوحشون جداً لا يعرفون معنى الإنسانية ، و منهم من لا يستطيع لضعف عقله أن يعد العشرة و لا الأربعة [6]. و الحياة العقلية للحيوان بقيت قليلة ومخفية ، بسبب

---

[1] مرتضى فرج ، الداروينية ، مرجع سابق ، ص29.

[2] المرجع نفسه ، ص30.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص18.

[4] المصدر نفسه ، ص 28.

[5] شبلي شميل ، شرح بخنر على مذهب دارون ، مصدر سابق ، ص159.

[6] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص ص20-21.

الفلاسفة الذين جعلوا العقل خاصية إنسانية دون أدلة مخبرية ، ولفهم أعمال العقل عند الحيوان ، وجب الاعتماد على الناس الذين يُخالطونها كالصيادين والرعاة والفلاحين ... حيث يؤكدون أن لها لغات وجمعيات ، وتبني بيوتاً وقصوراً ، و لها جنود وأسرى وسجون ومحاكم ، كما تقوم بتربية صغارها و تغير أخلاقها وهذا ما لا نجده عند الكثير من البشر المتوحشين الذين لا يدركون معنى الفضيلة ، مثل معاملة الأم بوحشية وقتل الأولاد ووأد البنات عند بعض القبائل ، وقتل العدو و الشرب من دمه [1]، لذلك " **الانسان كالحيوان متكون على نفس النواميس التي تكَون بموجبها عالم الأحياء** " [2].

المطلب الثاني : منشأ الأخلاق .

إن جميع الكائنات الموجودة في الكون على اختلافها ، من الجامدة الى الحية ، ومن البسيطة الى المعقدة ، ومن الحيوانات الدنيا الى الحيوانات العليا ، يحكمها قانون طبيعي واحد ، يجعلها تتحرك وفقه وهو : حب الذات ، والغاية منه واحدة وهي الحفاظ على بقائها ، فإذا قلنا أن جزيئات المادة الجامدة تحكمها قوتين : التجاذب والتنافر ، فإن هاتين القوتين موجودتين في الأحياء كذلك، فنجد الحيوان و الانسان ينجذبان الى أشياء و ينفران من أخرى ، " **فالمحبة و النفور ليس في قلب الانسان وحده بل في قلب الجماد أيضاً** " [3]، وحتى النباتات تتجذب أوراقها لضوء الشمس و تنفر جذورها من المياه الملوثة ، ولا يجب اعتبار هذه الصفة الأصلية في الكائنات شراً ، بل على العكس من ذلك هي خير " **وخير المحبة ما ابتدأ بالذات** "[4] لغاية حفظ البقاء .

وحتى لو كانت محبة الذات في بعض الأحيان يمكن اعتبارها أنانية ، و تؤدي الى شر والحاق الضرر بالآخر ، فإن هذا الشر أو الضرر ظرفي و عَرضي ، وقوعه واجب لحدوث الخير ، مثل النبات الذي تنطبق على الذباب الواقع على أوراقه حتى يموت من خلال امتصاص دمه ، أو الحيوان الذي يفترس آخر من أجل حفظ بقاءه [5].

---

[1] شبلي شميل ، شرح بخنر على مذهب دارون ، مصدر سابق ، ص161.
[2] شبلي شميل ، الحقيقة ، مصدر سابق ، ص288.
[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص28.
[4] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص156.
[5] المصدر نفسه ، ص156.

ان محبة الذات غريزة طبيعية في الأحياء ، لذلك نجد الإنسان يميل الى اللذة وكل ما يتوافق مع راحته ومحبته لذاته ، ويبتعد عن الألم وكل ما يزعج راحته ويهدد بقاء ذاته ، لذلك يقول شميل :" **اعلم أن محبة الذات تجعل الانسان يتمنى لنفسه كل خير يعتقده خيراً ، ويهرب من كل شر يعتقده شراً . ولا يسلك لذلك سبيلاً واحداً ، بل كلٌ يرى خيره بحسب هواهُ** " [1]، ويفهم من هذا القول أن الأخلاق ذاتية ، و أن الانسان هو مقياس كل القيم الخلقية ، فما اعتقده خيراً فهو خير لما فيه من لذة و منفعة ، وما اعتقده شراً فهو كذلك لما فيه من ألم و ضرر ، فلا وجود لخير في ذاته ولا شر في ذاته .

إن ارتباط أصل الأخلاق بطبيعة الانسان الغريزية ، يجعل شميل يقر بنسبيتها حسب تغير ظروف الزمان والمكان ، وهذا ما يتوافق مع نظرية التطور، وإذا اختلف الناس في اتباع الوسائل لتحقيق منافعهم ، إلا أنهم يتفقون في الغاية وهي السعي الدائم وراء محبة الذات ، " **حتى ولو أنكر الانسان نفسه ، وأتى أفعالاً تخالف هذا المبدأ في الظاهر ، فلا ينكرها من جهة إلا حباً بها من أخرى ، خوفاً من عقاب أو طمعاً بثواب** "[2]، بمعنى أنه حتى ذلك المتدين الذي يؤمن بالخالق ، فهو ينفذ الأوامر الإلهية بمجاهدة و مقاومة رغبات الذات و مطامعها ، إلا رغبة منه في الحصول على لذة و راحة أكبر لذاته في ما بعد عالم الشهادة المزعوم حسب شميل . وحتى الذي يقتل نفسه فإن فعله هذا مرده الى محبة الذات ، وذلك بتخليصها من حياة الشقاء والقلق والتعب .

ولا يجب الاعتقاد أن حب الذات (الأنانية) طبيعة سيئة في الانسان تؤدي الى الاستغلال من أجل بلوغ سعادته الفردية ، بل يعتبر شميل محبة الذات أُمُ الصفات في الأجسام الحية ، فيقول عنها:" **هي صفة واجبة ضرورية يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الانسان الحسية ، ويتولد عنها جميع الصفات الأدبية الرفيعة التي تتوقف عليها حياته المعنوية** "[3] ، أي أن وجود الشر والخير مصدره محبة النفس ، والتجارب الحسية هي التي تنقل المعلومات والتأثيرات اللازمة للعقل لكي يصدر الحكم ، فإذا كان الانسان مطلعاً ، عالماً ، يكون عقله صادق الحكم في اختيار أحسن الوسائل لبلوغ راحته وسعادته ، مما ينشأ عنه صفات حميدة مثل الكرم والشهامة والشجاعة ، والعدل ، هذا من شأنه اسعاد الفرد والمجتمع

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص21.

[2] المصدر نفسه ، ص156.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص22.

معاً ، وإذا كان الانسان جاهلاً بعيداً عن العلم الصحيح ، أدى بعقله الى أحكام خاطئة مختاراً بذلك وسائل خاطئة ، مما يتولد عنه صفات ذميمة منها الدناءة و الكبرياء ، والجبن ، والظلم واستبداد الحاكم ، والتي ترجع بالويل على الفرد والاجتماع الإنساني .

وبالتالي سعادة الذات هي الغاية القصوى ، والوسائل المناسبة لإنتاج الأخلاق الحسنة ترجع للعلم ، فيقول الشميل :" **انظر الى الكبرياء والشرف ، فهما صفتان متولدتان من محبة الذات ، أولاهما ذميمة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجهل ، والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم** " [1]، فالكبرياء والشرف كلاهما يشتركان في غاية واحدة وهي احترام وتقدير الذات ، لكنهما يختلفان في الوسيلة المتبعة ، فالأول لجهله لجأ الى احتقار الآخر من أجل تقدير ذاته ، أما الثاني وبفضل علمه ادرك أن تقديره لنفسه لا يتحقق إلا باحترام الآخر ، فلو كان صاحب الكبرياء عالماً للعلوم الصحيحة ، لكان عقله راجحاً فيختار الأحسن لذاته من خلال تبني طرق ووسائل مناسبة .

فمحبة الذات ترجع إليها كل أفعال الانسان وهي الأصل الأول ، تتفرع منها قيم الخير والشر حسب الوسائل المتبعة ، على أن الانسان الذي يسعى لسعادته الفردية على حساب سعادة الآخرين ، فهو بذلك جاهل للوسيلة المثلى لتحقيق سعادته ، فلو كثر علمه وتوسعت معارفه ، لاستنتج بعقله أن سعادته الفردية لا تتحقق إلا داخل المجتمع من خلال تبادل المنافع المشتركة ، أين يستفيد الفرد من مزايا كثيرة من خلال انضمامه للجماعة ، فينتقل في هذه الحالة الفرد من ذاته الى عائلته ، ثم الى جماعته ووطنه ، لتشمل نوعه الإنساني ككل [2] .

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص15.

[2] المصدر نفسه ، ص56.

المبحث الثالث : أصل الاجتماع الانساني ، و منشأ الأديان.

المطلب الأول : أصل الاجتماع الإنساني .

الاجتماع ضروري للحيوانات إن لم نقل طبيعي فيها ، من ذلك اجتماع النحل و النمل و القرود ، وهذه الصفة موجودة كذلك عند الانسان ، إلا أن اجتماعه أكثر تطوراً لأن الانسان حيوان أكثر ارتقاءً ، وينشأ الاجتماع من أجل صيد الحيوانات خاصة الكبيرة ، والاحتماء من العدو ، لأن في الاتحاد قوة لا تتاح للفرد ، فـ" **الغاية من الاجتماع البشري و يسمى العمران أيضاً ، التعاون على المعاش و الاعتمال في تحصيله من وجوهه و اكتساب أسبابه** " [1] .

وبالنسبة لشميل ، فإنه من الواجب اللجوء الى العلم الطبيعي لاستنتاج قوانين المجتمع ، و ذلك من خلال دراسة طبيعة و صفات الأفراد المؤلفة للعمران ، و ذلك بالرجوع الى أصلها الطبيعي و تاريخ نشوئها ، وعليه " **الاجتماع لا تتم معرفة سننه إلا بمعرفة طبيعة الأفراد وسننها ، كما أن الجسم الحي لا تتم معرفة سننه إلا بمعرفة سنن الكريات الحية التي يتركب منها** " [2]، و بهذا نكون بصدد البحث العلمي لكافة الاجتماعات البشرية وحتى الحيوانية .

ويشبه شميل المجتمع في تعاونه بالجسم الحي الذي يتألف من عدة أعضاء ، ولكل عضو وظيفة مختلفة عن الآخر ، إلا أن هذا الاختلاف يؤدي الى التكامل و التعاون ، مثال ذلك وظيفة المعدة تختلف عن وظيفة القلب ، و كلا الوظيفتان مختلف عن وظيفة الدماغ ، إلا أنهم يشتركون و يتعاونون في حفظ و استمرار الجسم الحي ، أي " **أن العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الآخر ، ويعمل له في آن واحد** " [3]، نفس الأمر في المجتمع فإنه يتكون من أفراد مختلفون في الوظيفة ، إلا أنهم في تعاون دائم لارتقاء المجتمع ، فعمل الزارع يختلف عن الصانع الذي بدوره يختلف عن عمل التاجر ، إلا أنه كل واحد منهم وجوده لازم للآخر.

ويمكن توسيع التشبيه ليشمل الصفات العامة ، فإذا كان للحيوان ثلاث قوى كبرى هي : الغاذية ، وظيفتها تحضير الغذاء من خلال المعدة والكبد و غيرها ، والمدبرة ، وظيفتها اكتشاف وتحصيل الغذاء من خلال الدماغ والأعصاب ، والمُوزعة ، وظيفتها توزيع الغذاء من خلال القلب و الشرايين ، كذلك المجتمع تحكمه ثلاث قوى كبرى : الصناعة ، وظيفتها انتاج معاش

---

[1] شبلي شميل ، المجموعة ، الجزء الثاني ، د.ط ، مطبعة المعارف ، مصر ، دت ، ص22.

[2] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص44.

[3] المصدر نفسه ، ص45.

أفراد المجتمع ، الحكومة ، وظيفتها تحصيل أسباب المعاش ، والتجارة ، ووظيفتها توزيع المعاش [1] .

وبهذا التشبيه يؤكد شميل ارتباط الفرد بالجماعة ارتباطاً شديداً ، فنمو مصلحة الفرد يلزم عنه نمو مصلحة الجماعة بالضرورة ، " **حيث لا تتم حياة الواحد إلا بحياة الآخر ، لأنهم رأوا السنن الفاعلة في الاجتماع نفس السنن الفاعلة في الأفراد** " [2]، غير أنه قديما كان يُعتقد أن المصلحتين منفصلتين ، باعتبار أن الفرد يُنمي مصلحته على حساب الآخر والجماعة ، لذلك شرائع البشر ونُظُمهم في الحكم كانت تميل أكثر للقوة والاستبداد ، من أجل بلوغ مصلحة الجماعة وخلق نظام في المجتمع .

والرابط الذي يجمع بين الأفراد ، لتشكيل مجتمع متماسك هو محبة الذات ، التي هي سر الاجتماع عند الكريات الحية أو الحيوان أو الأنسان ، فحب الذات أصل الاجتماع " **لأن كل شيء في الأصل يدور حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه إليه ، وذلك هو محبة الذات المنفردة ، ثم يتحول هذا الميل في الكريات الى ميل مركب لحفظ ذاتها بحفظ ذات سواها** " [3]، والمقصود هو أن كل خلية تحافظ على ذاتها من خلال الحفاظ على جارتها ، والتي تنجذب نحوها بسبب قوة الشوق والذي يرجع سببه الى الأصل الواحد ، وبحكم المنفعة والمصلحة المشتركة تتبادل الكريات الحية أو الخلايا الغذاء و الحركة لكي تستمر حياتها ، و هذا ما نجده في الحيوانات الاجتماعية العليا ، فأصل الطبيعة في الحيوان أن يكون انفرادياً لأن تجمعه في جماعات يؤدي الى التنازع في القوت[4]، لكن بسب المنفعة المتبادلة ، مثل رد العدوان وصيد حيوانات كبيرة كالفيل والثور تجعلهم يتحدون ، بحيث يصبح خير كل فرد مرتبط بخير غيره ، وبهذا يخدم الواحد الكل والكل الواحد ، فالعلاقة النفعية المشتركة بين الكريات الحية مشابهة للعلاقة بين أفراد المجتمع البشري .

والاجتماع البشري قائم على التراضي والاتفاق الارادي المتبادل بين أفراده ، لذلك هو أرقى الاجتماعات ، حيث انطلق من الأصل الطبيعي المادي والمتمثل في قوة الدفع والجذب في جزيئات المادة ، ثم تطورت في الخلايا الحية لتصبح عند النبات والحيوان قوة حب الذات

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ، ص45.
[2] المصدر نفسه ، ص45.
[3] المصدر نفسه ، ص53.
[4] سلامة موسى ، نظرية التطور و أصل الانسان ، مرجع سابق ، ص173.

مشتركة عمياء ، أين يحس بعضها ببعض ، لترتقي عند الانسان وتصير محبة مشتركة عاقلة ومُدركة ، قائمة على الإرادة ، ومن هذا المبدأ يسن القوانين و يبني دول قائمة على نظام سياسي يحترم إرادة كل فرد داخل مجتمع متعاون متكافئ ، وهذا ما قصده شميل في قوله " **ثم يتحول هذا المبدأ ... الى معقولات الانسان حتى يكتمل في الاجتماع البشري ، فيصير الشوق محبةً والمحبة اخاءً والاخاء تعاوناً والتعاون عدلاً ، وتعيين الوظائف الرفيعة وانتخاب لها حكومة ، فتكتمل حياة الاجتماع العقلية** " [1].

وانطلاقاً من اعتبار العمران حي و ليس آلة مصنعة ، أمر بالغ الأهمية في الجانب السياسي ، فلو اعتبرنا المجتمع ألة مصنعة من أجزاء متعاونة ، يقودنا الى التسليم بأن هذه الآلة صنعتها قوة خارجية تُحركها و تتحكم فيها و تُخضعها لقوانين الصانع ، و لا مجال للحديث عن حرية حركة أجزاء هذه الآلة وان كانت في تعاون مصطنع ، ومن جهة أخرى اعتبار المجتمع آلة يجعل الأجزاء المكونة لها ثابتة لا تتغير ، فالخشب يبقى خشب و الحديد يبقى حديد ، و بهذا التشبيه الآلي للمجتمع ، يؤدي الى قوة نظام سياسي يحرك المجتمع بقوانين قهرية استبدادية ، ولا مجال للحديث عن التغيير و الاصلاح ، بينما اعتبار المجتمع كالجسم الحي يتألف من خلايا ، قوتها مستمدة من ذاتها ، وفي ذات الآخر، متغيرة متطورة ، يؤدي بنا هذا التشبيه الحي الى قوة نظام سياسي قائم على التراضي و الاتفاق الإرادي ، و هذا ما يتناسب مع طبيعة الفرد و المجتمع.[2]

المطلب الثاني : منشأ الأديان .

يجعل الشميل قوانين نظرية التطور مطابقة تماماً للأديان في منشأها وتطورها ، حيث أن كل الملل والنحل تعود لأصل واحد ، ومن هذا الأصل تفرعت آلاف الأديان والعقائد ، والتي أخذت تتطور تدريجياً من خلال عوامل داخلية و خارجية ، مثل : الاختراعات و الاكتشافات ، وتغير العلوم و ازدياد خبرات الانسان في الحياة و تغير احتياجاته و اهتماماته واخلاقه ، الى غير ذلك مما يغير الديانة كتغير الأنواع ، كما أن هذه الأديان تدخل في تنازع وصراع يصل حتى إراقة الدماء ، من أجل البقاء للأصلح ، فمنها ما يبقى و منها من ينقرض ، مثل تنازع الأنواع ، وهذا ما نستشفه من قوله : " **إن الديانات المختلفة كالأنواع تنشأ من**

[1] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر السابق ، ص48.

[2] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص51.

أصل واحد و تتحول بعضها من بعض وتنازع نظيرها، و كما ان الفائز في هذا التنازع هو الانسب للأحوال الخارجية ، هكذا الفائز من الديانات ايضا هو الانسب لأحوال الزمان" [1] ، فما يصلح في النظرية التطورية يصلح على الأديان.

وحسب شميل الأصل الأول للدين يرجع الى حب الإنسان لذاته ، التي تطلب بكل الطرق ما يحقق لها اللذة و الراحة ، وكان الموت أكبر مصيبة مؤلمة تصيب الذات ، وتقع على الجسم ، ويفسد راحة الذات التي تنفر من الألم ، باحثة عن خلودها ، لذلك لجأ الأنسان الأول للأوهام " **فهام العقل في سماء الخيال ... يرجو من ذلك مهرباً فسمع همساً يقول له " لن تموت فاتبعني " فوقع عنده هذا القول موقع المطر من الأرض العطشانة... "**[2]، هذا الوهم ما هو إلا هروب الذات من مصيبة الموت الذي شكل له عقدة لا تُحل ، فتصور بسبب جهله و سذاجة فكره أن هذا القول مصدره قوة عاقلة ، تسكن الأشياء التي تحيط به فانتابه الخوف منها وأخذ يتذلل لها .

والذي شجع هذه الأوهام هو الأحلام ، حيث أن الإنسان الأول عندما راودته الأحلام ، كان يرى فيها نفسه يفعل كل النشاطات التي يقوم بها و هو مستيقظ ، حيث يذهب و يجيء و يرى و يسمع و هو ساكن في مكانه ، بشهادة الذين رأوه و هو نائماً ، اعتقد أن له ذاتين أو وجودان : الوجود الروحاني وهي الذات المُتنقلة ، تفارق الجسد إذا نام وتعود إليه إذا استيقظ ، و الوجود الجسماني وهي الذات التي لم تتنقل وبقيت ثابتة عند النوم . ومن هنا اعتقد الأنسان الأول بالأرواح التي هي أصل عبادة الجماد والنبات والحيوان وسائر العبادات والأديان[3].

وبهذا عبد الانسان المتوحش كل ما يقع على نظره من موجودات معتقداً أن بها روحاً أو آلهة ، فعبد الحيوانات و الأشجار و الاحجار و أشياء أخرى بالغ في تكريمها و تقديرها ، فربما زرع شجرة أمام بيته و تقرب من الروح التي فيها لأنها تحرسه و تحمي أملاكه ، وإذا يَبست حزن و خاف مُرجعاً ذلك لغضبها عليه ، و هذا ما اعتبره الانسان المتوحش شراً ، و لا يزال تقديس الحيوانات و الأماكن و الأشجار الى يومنا هذا ، و هذا ما يعرف بـ" الفتيشية " وهي أول عبادات الإنسان [4].

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص26.

[2] المصدر نفسه ، ص22.

[3] المصدر نفسه، ص23.

[4] المصدر نفسه ، ص24.

كما أن الإنسان الأول اعتقد أن بعد الموت يوجد حياة ، وسبب ذلك أنه لاحظ أن المُغمى عليه تظهر عليه حالات مثل الميت ثم يفيق ، كما كان يرى الأموات في الأحلام ويحدثهم كأنهم أحياء ، فتوهم أن الموت لا يُناقض الحياة ، وذلك خير و راحة لذاته ، من مصيبة الموت التي يكرهها ، وقد نتج عن ذلك عدة أشياء :

1- صار الانسان يعتني بالجثة معتقداً أن صاحبها حي ، فنشأ من ذلك صناعة التحنيط وفكرة القربان و التضحية .
2- عندما يموت عدواً أو مجرماً آذوا القبيلة ، كان يقيد جثثهم أو يضع ركاماً من الأحجار حتى لا يستطيعوا الخروج من تحتها ، فنشأت من ذلك صناعة القبور ثم المعابد .
3- عندما كان يموت رئيس القبيلة أو أحد الأبطال المحبوبين و الذين كان يخافهم و يحترمهم ، كان يستمر في احترامهم بعد الموت ، ويذكرهم هو وذريته من بعده ، فيصير هؤلاء الأبطال آلهة ، و تصير قبورهم معابد تُزار .
4- كانت الجثة تفسد فيزول فمها و يدها ، فيظن أنها لا تستطيع الأكل ، فيصنع من الطين أو الحجر شبهاً و يقدم له الطعام ، و من هنا نشأت صناعة الأصنام و التماثيل[1].

بعدما تمرغ الإنسان الأول في عبادة جميع موجودات الأرض ، وبعدما لاحظ أنها لا تنفع ولا تضر، رفع رأسه الى السماء وعبد النجوم و الكواكب اللامعة و الشمس الساطعة ، ورضي بها آلهة حتى انتابه الشك و الحيرة في وجودها في هذا العالم أو في ما وراءه . فقد تعبد الانسان كل موجودات هذا العالم " **إذ يرى في كل شيء آلهة قاهرة ، وأرواحاً ساحرة فيستدعي في حركاته وسكناته أرواح الأشجار ، وقوات الجبال ، ونفوس الكواكب ، وما يستدعي إلا خيالات و أوهاماً ، لا تجلب له خيراً و لا تدفع عنه خيراً ، ولا يستفيد منها إلا توسيع نطاق الأوهام في دائرة عقله** " [2].

والانسان بتطور معارفه الإكتسابية الصادرة عن حواسه ، وازدياد تجاربه وخبراته ، قَلص عدد الآلهة ، ثم أبعدها عن الأبصار و اختصرها في واحد [3]، فيقول شميل :" **كل شيء في**

[1] سلامة موسى ، نظرية التطور وأصل الانسان ، مرجع سابق ، ص202.
[2] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص13.
[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص24.

الكون سلسلة : العالم المادي والعالم المعنوي ... وكما نشأت الأحياء الراقية من أحياء أدنى ، و هي من مواد الطبيعة ، هكذا نشأت الأديان من الاعتقادات ، و هذه من الخرافات "[1] ، و المقصود هنا أن الأديان السماوية وضعية ، ناتجة من الإعتقادات التي تطورت من الأوهام التي تخبط فيها الإنسان الأول ، وهي ليست من قوة مُدبرة سابقة الوجود المادي .

ويحدد شميل القواسم المشتركة بين الأديان السماوية ، ثم يقوم بتفنيد كل نقطة تشابه :

1- الديانات تتشابه في الوحي و أساسها الإيمان ، و حسب شميل لا دليل علمي يدعونا الى التصديق الأعمى بالوحي ، ورغم الحجج الاجتهادية التي يعتمدها الفلاسفة و غيرهم لإثباته ، إلا أنها تناقض نتائج العلم ، وتناقض ذاتها ، فإذا كان الانسان من خلق الله وبمشيئته ، فكيف يكون الانسان حر ومسؤول عن نتائج أفعاله[2].

2- كل الديانات تدعي الصحة ، و تتهم الأديان الأخرى بالزيف ، فإذا كانت هذه الدعوى صحيحة للأديان ، وبما أن الحقيقة واحدة لا تتجزأ ، حتماً تكون واحدة منها فقط صحيحة ، هنا يتساءل شميل أَيُ ديانة هي الحقيقية .

3- تتشابه أيضاً في فكرة البعث و خلود النفس ، يَرد شميل بأنه كيف لأجسام انحلت الى ملايين الأجزاء و دخلت في تكوين أجزاء و أعضاء كائنات أخرى أن يُعاد تجميعها ، و إذا قالوا البعث للأنفس فقط ، فقد ثبت علمياً أن النفس قوة من عمل المادة متمثلة في نشاط الدماغ و الأعصاب سواء عند الانسان أو الحيوان[3].

وعليه فإن أصل العقائد جميعاً هو الوهم و ليس الإله ، و بتطور الادراك الحسي للإنسان ، و نمو حضارته ، تطور الوهم و ارتقى الى أن أصبح ديانة يركن إليها الانسان في جميع تفسيراته ، سواء وجوده و مصيره و أخلاقه ، فالدين ظاهرة اجتماعية ، اخترعها الانسان بسبب جهله بالعلوم المادية .

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص96.

[2] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص27.

[3] المصدر نفسه ، ص27.

نتيجة :

مما سبق ، نستنتج أن شميل فسر كل شيء من خلال ايمانه الشديد بالداروينية ، وفي بعض المواضع نجده دارويبنياً أكثر من داروين ذاته ، حيث أرجع الكون وكل ما فيه من موجودات على اختلافها الى أصل واحد ، وهو المادة الموجودة منذ الأزل وستبقى الى الأبد ، منها تفرعت الأنواع المتعددة والمختلفة عن طريق تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي ، والأشكال المتكونة أي المعادن والنبات والحيوان والانسان تكون في كل مرحلة أكثر تميزاً بعضها عن بعض ، وأكثر تعقيداً منها في المرحلة السابقة ، وكل مرحلة تنبثق من المرحلة التي سبقتها بدون انفصال . رافضاً بذلك فكرة أن الوجود مخلوق من طرف قوة مطلقة ، تُدبر شؤونه ، وتُسير كائناته ، وهذا اخلاصاً منه للمذهب المادي القائم على نتائج العلم وتفسيراته . وما يُحسب لشميل أنه نقل مذهب التطور من شكله البيولوجي ، ليمتد الى كل مظاهر الانسان الثقافية والاجتماعية والدينية ، وبما أن الكون مادة والانسان مادة فإن هذا الأخير قابل للارتقاء والتقدم ، والانسان هو قمة هذا التطور والكائن الأول القادر على السيطرة عليه و المساهمة فيه عن وعي ، وذلك بتغيير ظروفه الخارجية وبتعويض الصراع من أجل البقاء بالتعاون المشترك ، وحب الذات (الأنانية) في السعي وراء سعادته الخاصة ، بالسعي وراء سعادة الجميع ، فيحصل تغير عظيم في حياته إذا أحسن استعمال قوى الطبيعة وقوانينها ، بعيداً عن التفكير الميتافيزيقي والديني ، مما يجعله قادراً على التطور والنهوض.

الفصل الثالث :

الفلسفة المادية التطورية لشميل .

تمهيد للفصل :

المبحث الأول : قداسة العلم الطبيعي وإصلاح التربية والتعليم .

المطلب الأول : قداسة العلم الطبيعي .

المطلب الثاني : إصلاح التربية و التعليم .

المبحث الثاني : القواعد السياسية للحكومة ، وعلمانية الدولة .

المطلب الأول : القواعد السياسية للحكومة .

المطلب الثاني : علمانية الدولة .

المبحث الثالث : جمهورية شميل ، وحتمية الاشتراكية .

المطلب الأول : حتمية الاشتراكية .

المطلب الثاني : جمهورية شميل .

نتيجة الفصل .

تمهيد:

إن شميل كغيره من الفلاسفة والمصلحين الذين حاولوا النهضة بأوطانهم ، وقد كان لنهضة الأوروبيين عامل مشجع لهم في ذلك ، حيث حققت تقدم مس جميع الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية ، بعدما كانت تعيش عصور الظلام ، أمام هذه الثورة العلمية الأوروبية ، وقف الانسان العربي منبهراً ، وحاول اللحاق بالركب ، فهناك من ربط التطور بالرجوع الى الأمجاد الماضية إحياء الدين ، وهناك من بنى مشروعه النهضوي انطلاقاً من التأثر الكبير للغرب ، وهذا الأمر تحمس له كثيراً شميل وجعله أساس النهضة للشرق . ويعزو شميل انحطاط الشرق الى عوامل عديدة ، أهمها طبيعة بلاد الشرق الجغرافية وثقافتهم الأخلاقية و الاجتماعية ، فطبيعة الشرق توجب الراحة للبدن هذا ما يفسح المجال للخيال الواسع ، مما جعله تربة مناسبة لسيطرة الأديان والعلوم الميتافيزيقية ، كما أن الشرق متخلف علمياً مما جعل أخلاقة تتأثر بالجهل وانتشار الأوهام ، فانتشرت لديهم العصبية الدينية والمفاخرة و الرياء ، ومن الجانب السياسي ، تجبر الملوك على شعوبهم ، واستعبادهم لهم لانعدام الوعي و الحرية السياسية ، ولم يبق شميل يعدد أسباب التخلف ، بل أعطى حلول مناسبة لكل هذه المشاكل المتوارثة من جيل لآخر ، ومنه نسأل :

- ما هي السبل التي اقترحها شميل للخروج من دائرة التخلف عند الشرق ؟
- وما أسس مشروعه النهضوي ؟

المبحث الأول : قداسة العلم الطبيعي واصلاح التربية والتعليم :

المطلب الأول : قداسة العلم الطبيعي .

يؤمن شميل بالعلوم الطبيعية المادية ايماناً لا حد له ، ويتجاوز بها مجالها العلمي الى الميدان الاجتماعي ، ومن ثمة يتحدد موقفه من الأديان والعقائد ، فالعلم عنده بديلٌ عن الدين . والآراء الاجتماعية والدينية لا بد أن تنبع من بحوث العلم المادي فحسب ، " **فالعلوم الطبيعية هي أم العلوم الحقيقية ، ويقتضي أن تكون أم العلوم البشرية كافة وأن تدخل في تعليم كل شيء** "[1] ، والمقصود بالعلم الطبيعي ، العلم القائم على التجربة الحسية وحدها دون غيرها في البحث العلمي والتوجيه الاجتماعي على السواء ، وهذا لا يتحقق إلا بالعوة الى الداروينية المادية [2].

ويرجع الشميل تخلف المجتمعات الشرقية وعدم مواكبتها للتطور وللتقدم الحضاري ، الى غياب العلم الحقيقي ، بوصفه منهجاً في التفكير وأداةً لاستنطاق الطبيعة بغية كشف أسرارها وتسخيرها لخدمة الانسان ، و بوصفه وسيلة يجري بها اصلاح حال الانسان وتسيير حياته ، لذلك يربط مفهوم العلم بدراسة الطبيعة ، فهي الكتاب الوحيد الذي ينبغي اعتماده في دراسة الطبيعة من خلال المنهج التجريبي القائم على أساس الملاحظة الحسية و الاختبار[3].

هكذا ، فإن العلم الطبيعي هو الدين الجديد للإنسانية جمعاء ، وأعظم الأمور شأناً ، بل هو المفتاح الحقيقي لحل كل ألغاز الكون ، ليس فقط من خلال اكتشاف القوانين العلمية ، بل يمتد الى تغيير أحوال البشرية جمعاء الى الأفضل ، وتعطي له قفزة نوعية في سلم الارتقاء ، فعند شيوع العلم " **يصح نظر الانسان حينئذٍ في لغاته ، وينتظم في قياسهُ ودليله ، وتقوى فلسفته بارتباطها ، وتعلو آدابه لانطباقها على العمل وتصلح شرائعه لتطبيقها على نظام الاجتماع الطبيعي، ويتسع عقله لانطلاقه من قيوده المتناقضة ... ويسرع ارتقاؤه لانطباقه في سيره به على نواميس الكون** "[4].

إن اعتبار العلم أساس كل شيء وجدير بالتقديس ، يتطلب حسب شميل التمييز بين نوعين من العلوم ، هما العلوم النظرية والعلوم الطبيعية ، فالنوع الأول يسميها شميل علوم سخافية ، لأنها مواضيعها مجردة ميتافيزيقية غير قابلة للاختبار التجريبي ، مما أدى بالعقول

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص48.

[2] أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، مرجع سابق ، ص550.

[3] حسين عبد الزهرة الشيخ ، إشكالية العلاقة بين الدين و العلم في الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق ، ص574.

[4] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص48.

للاختلاف فيها لقرون طويلة ، من ذلك علوم الدين والفلسفة النظرية ، وكذلك العلوم الأدبية و البلاغية والتاريخ المحشو بالخرافات والأساطير ، على هذه السموم يشن شميل هجوماً عنيفاً لأنها تفصل الانسان عن واقعه وتجعله يتمسك بالأوهام والخيالات ، وهي سبب المفاسد و الشرور الاجتماعية والسياسية ، وهذا ما يوضحه صراحة بقوله :" **أنا أكره جداً كل بحث مبني على النظر المجرد ، وفي اعتقادي أن وقوف العمران متباطئاً في الارتقاء ومتقهقراً أحياناً كثيرة سببه الأكبر أن أكثر علومه حتى اليوم علوم مجردة** " [1].

أما النوع الثاني هو العلوم الطبيعية ، وهي عند شميل العلوم الحقيقية والوحيدة التي يمكنها انقاذ الانسان والمجتمع من العلوم النظرية المجردة ، " **فالعلوم الطبيعية هي المعول الوحيد الذي يُزعزع أركان تلك العلوم و يهدم بنيانها** " [2]. مثل : علم الفيزياء والكيمياء و البيولوجيا ، و علم الرياضيات رغم أنه علم مجرد إلا أنه جد نافع حسب شميل لأن الرياضيات :" **واحدة في كل المدارس، و هي من أصدق العلوم و تأثيرها في العقل جيد جداً إذ تربيه على القياس الصحيح** " [3]، هذه العلوم الصحيحة وجب تعميمها ونشرها على نطاق واسع عن طريق التعليم في جميع مراحله ، وتحل محل المناهج العقيمة التي تُسيرها المقولات الدينية .

ولإثبات رأيه ، يدعونا شميل للمقارنة بين ما حَققته العلوم المجردة رغم سيطرتها على العقول و التعليم لقرون طويلة ، وبين إنجازات العلم التجريبي رغم حداثة عهده ، فالمدرسة القديمة خلفت صنائع محصورة في البناء والفنون الجميلة ، كإقامة الأثار الضخمة و التماثيل المُتقنة ، هذه الآثار البديعة ليس لها منافع عمومية ، بل تخدم طبقة خاصة و محدودة في المجتمع ، فهي رموز تدل على الذل و العبودية من جهة ، و على السيادة المطلقة و تأليه الملوك من جهة ثانية ، مثل ما وُجد في حضارة اليونان و الرومان و الفراعنة . أما إنجازات العلم التجريبي فيمكن اعتبارها معجزات ، لأنها في فترة وجيزة حققت إنجازات باهرة و منافع عمومية كبيرة جداً ، مثل الإضاءة بالسراج الذي نعرفه منذ أربعين سنة هو نفس السراج الذي كان منذ خمسة عشر ألف سنة ، أما الإضاءة بالمصابيح الكهربائية ، تطورت بسرعة رهيبة

---

[1] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ،مصدر سابق ، ص17.

[2] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص50.

[3] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر سابق ، ص176.

في خمسين سنة الأخيرة ، أي بعدما تحرر العقل من العلم الفقهي والميتافيزيقي والأدبي ، و اتجه الى دراسة الطبيعة واكتشاف قواها بالعلم التجريبي [1].

لذلك الشرق إذا أراد وُلُوج التمدن ، فعليه أن يتخلى عن علومه النظرية ، وتغيير المرجعيات الثقافية لتَحُلَ المرجعية العلمية القائمة على مبادئ النظرية التطورية ، محل المرجعية الفقهية والدينية القائمة على الخرافة و الميتافيزيقا [2]، فإذا كان الشرق متخلفاً فذلك راجع للدين والجهل ، وسر التقدم هو العلوم الطبيعية . ويعطي لنا شميل شاهداً تاريخياً حيث أن اليابان في زمن قصير استطاعت أن تنهض من سباتها وتحتل الريادة من بين الأمم المتقدمة ، مثلها في ذلك مثل الصين التي استمرت رقدتها ألف سنة ، وبفضل العلم الطبيعي حققت نهضة عظيمة ، فسبب الانتصار هنا يرجع للعلم وحده ، وليس كما كان في الماضي الانتصار يقوم على الغز والحروب الدموية .

والتطور للأمم بناء على نظرية داروين التطورية ، يكون في اطراد مستمر ، لأن العلوم الطبيعية سوف تربط العالم و أطرافه ، و توحد الشعوب و الأوطان ، و سوف تفنى البلاد و الحضارات الضعيفة في الحضارات القوية و الكبيرة ، ومن ثم لن توجد حضارة قوية دوماً ولا حضارة منحطة أبداً ، وهذا مقصد شميل وقوله :" **أما اليوم و قد ارتفعت العلوم الطبيعية و أخذت بمصنوعاتها ومخترعاتها تربط أطراف العالم بعضها ببعض فصار الارتقاء مطرداً كلياً في العمران ، تُدمجُ فيه الأمم الضعيفة ، أو تنقرض بعامل النشوء التحولي غالباً لا بالحروب و الثورات الوحشية كما كان في الماضي** " ، وعليه الحضارة و التقدم الإنساني لن ينحط بل أن الثقافات و الأمم هي التي يأفل نجمها أو يصعد ، أما الحضارات فإن المغلوبة منها تنخرط أو تذوب داخل الحضارة الغالبة [3].

وهكذا ألغى شميل كل شيء ليُخلي المكان للعلوم الطبيعية ، وبلغ تقديسه لها لدرجة أنه رد على "بُخنر" بقسوة عندما اعتقد أن أوروبا بمجدها و عظمة تمدنها العلمي أنها ستسقط يوماً ، فيرد عليه شميل و يتهمه بأنه قد هجر ماديته وعاد الى نغمته الشعرية الفارغة [4]، هنا تتضح ثقة شميل في العلم الطبيعي ثقة مطلقة ، لدرجة جعله دين البشرية الحق ، وسيحل محل الدين

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص ص46-48.

[2] سيد حافظ عبد الحميد بدوي ، الوعي التاريخي ومستقبل الحضارة ، مجلة كلية الآداب بقنا ، العدد 55 ، 2022م ، ص442.

[3] المرجع نفسه، ص ص440-441.

[4] فيصل غازي ، تأثير الفكر العربي المعاصر بالفكر العلمي الغربي ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، العدد 68 ، دار المنظومة ، 2005م . ص242.

و كذلك الفلسفة " **فإنها ستُصبح مبتذلة في مستقبل الأيام ، فالمستقبل اليوم للعلم ، و للعلم العملي وحده فقط** " [1]، فهو السبيل الأمثل للنهضة العربية المأمولة .

المطلب الثاني : اصلاح التربية و التعليم .

يرى شميل أن الطفل يولد صفحة بيضاء ، لَينٌ كالعجينة ، و من خلال التربية القائمة على التكرار المستمر ، تتشكل شخصية الطفل و صفاته سواء كانت حسنة أو سيئة ، لتصبح بعد ذلك طباع تنتقل بسهولة عن طريق الوراثة ، فيولد الطفل مزودا باستعدادات و ميول هو بريء منها . فلو ارتكب الطفل ذنباً ، و سألناه عن الفاعل فإنه سيعترف ببراءة الأطفال أنه هو الفاعل ، فنقوم بمعاقبته ، ولكي ينجو من العقاب مرة أخرى نجده يكذب ، فالمجتمع هنا علم الطفل الكذب لأنه عاقبه على الصدق ، وهذا يؤكد أن للتنشئة الاجتماعية دور بالغ الأهمية في بناء فرداً صالحاً [2].

لذلك أولى شميل للتربية أهمية كبيرة في فكره ، وهو يدعوا لأن تكون مُسايرة لفطرة الطفل الطبيعية لا مناقضة لها ، والإعلاء من شأن التربية الطبيعية التي تحترم براءة الأطفال و ميولهم و غرائزهم الفطرية ، تعمل على تحرير قواه بدلاً من كبتها و إذلالها ، لأن في الحرية عوناً للطفل على تنمية ذاته من جميع الجوانب ، عكس التربية الاصطناعية التي تهدم ميوله وتصد رغباته[3] ، لأن " **بتربيتنا له نشرع بقتل كل مميزاته وهو طفل في البيت أولاً ثم في المدرسة ، حتى إذا خاض الاجتماع وبه بقية باقية تكفلت كتبنا الدينية و الأدبية... ونظاماتنا الاجتماعية بالإجهاز عليها فيزول الانسان الطبيعي بالكلية ولا يبقى إلا الانسان المصنوع على خلاف الطبيعة**"[4].

فقوانين التربية والتعليم اذا كانت مراعية لطبيعة الطفل الذي هو رجل الغد ، تؤدي حتما الى تطور الأمة وارتقاءها ، وأول مؤسسة اجتماعية تتلقى الطفل بالرعاية والتربية ، هي الأسرة ، وأعظم تأثير يكون للأم أكثر من الأب ، لأنها حسب شميل " **تُغذيه من دمها أشهراً و تسقيه لبنها أشهراً و تربيه في حِجرها سنين ، وما يكتسبه الطفل من أُمه بالإعداد الطبيعي و التربية الأدبية و التعليم العقلي قد لا تقوى عليه المؤثرات اللاحقة ومهما قويت**

---

[1] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص11.

[2] شبلي شميل ، مباحث علمية واجتماعية ، مصدر سابق ، ص157 .

[3] عبد الحفيظ عصام ، الفكر التربوي عند شبلي شميل ، مجلة الحوار الفكري ، ، عدد 01 جويلية 2001م مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، دار الهدى للطباعة و النشر والتوزيع ، 2001م ، ص48.

[4] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص42.

فلا تزيل أثره ."[1]، فالأم هي المدرسة الأولى للصغير ، يتلقى منها الصحة الجسمية والعاطفية و العقلية ، ولا تستطيع أي مؤسسة اجتماعية أن تعوض هذه التنشئة الطبيعية ، التي هي من الأم للطفل كالنقش على الحجر .

ولكي يبرز شميل أثر الأم العظيم على الطفل ، يدعونا للمقارنة بين أُمين : الأولى " **أُمٌ حمقاء لا تعرف قوانين الصحة إلا الأكل ... و من آداب التمدن إلا البهرجة... ومن العلوم غير ما تُقْوَى به الأوهام** ..." [2]، حتماً هذه الأم الجاهلة ستعطي لنا طفل جاهل رأسه مملوء بالخرافات و أوهام البعبع و الغول ، سطحيٌ في اهتماماته ، عقله لا يجرأ على التفكير خارج المألوف .

أما الأُم الثانية " **عاقلة مُتهذبة مُتعلمة بالآداب الصحيحة ، عالمة أن نُبلها قائم ببساطتها ... ليس للأوهام عليها سلطان ... تُربيه تربية تجعل عقله حُراً ... تُحافظ على صحته بالمبالغة بنظافة جسده** ..." [3] ، في هذه الحالة يكون الطفل فطرته و عقله خالياً من الأوهام المتوارثة ، حر في اكتساب ما يُساعد تنمية ميوله ، كما تعمل جاهدة على الحفاظ على صحته الجسدية . والهدف الحقيقي من هذه المقابلة هو توضيح فساد التربية القديمة والتي تمثلها الأم الأولى ، وبين نجاعة التربية الحديثة والتي تُمثلها الأم الثانية وهي المطلوبة عند شميل . فهو يُقر لما للأم من شأن عظيم في تنشئة الطفل و اعداده للحياة المدنية النافعة ، فمستقبل الأمة مرهون بتشكيل وعي المرأة بالحقوق والواجبات وتربية الأطفال على التفكير الحر والعلمي .

و المؤسسة الثانية التي تُساعد الأسرة في تربية الطفل هي المدرسة ، و هي هيئة صناعية غير طبيعية بالمقارنة مع الأسرة ، تقوم بوظيفة التربية أولاً بالنيابة عن أسرته التي هي مسؤول مباشر عنه ، وثانياً بالنيابة عن المجتمع الذي يعيش فيه وله الحق في الإشراف على تكوين أعضاءه [4]، فإذا " **خرج الطفل من حجر أمه الى المدارس صادف هناك عقبات كثيرة ، كثيراً ما تهدم جسمه و تُطفئ نور عقله ، من سوء المعاملة في التربية وفساد التعليم** " [5]، أي

---

[1] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر سابق ، ص176 .

[2] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر سابق ، ص 172 .

[3] المصدر نفسه ، ص ص172-173.

[4] عبد الحفيظ عصام ، الفكر التربوي عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص50.

[5] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص173.

أن نقل الطفل من محيط طبيعي الى محيط اصطناعي تجعله يصطدم بعوائق تعود بالضرر على تكوينه الجسمي والعقلي ، ومن قول شميل يمكن أن نذكر عائقين في التربية هما :

أولاً – سوء المعاملة في المدارس :

–نظام مدارس المشرق قديم لا يحترم قوانين التطور ، فالشروط الصحية شبه منعدمة سواء في الأكل أو الشرب أو الملبس أو الهواء ، و هذا ما يؤدي الى انتشار الأمراض فيها ، و السبب أن القائمين على هذا القطاع في الحكومة حسب شميل يَعُدُون " **القذارة نوع من التقشف الفضيل و النظافة إفراط في الترهل الذميم** " [1].

–قسوة و خشونة المعلمين و المشرفين على عملية التعليم ، و كأن المدرسة سجن ، و شميل نفسه عانى من هذه المعاملة السيئة ، حيث يروي لنا حادثة في صغره عندما كان في الصف ينتظر دوره ، فتأفف و طالب بالتعجل لأنه لم يتحمل شدة برودة الشتاء ، فعاقبه المُلاحظ و عندما اعترض شميل شدد العقاب ، هذه الحادثة تركت أثراً بالغاً في نفسيته [2].

ثانياً – فساد التعليم : ان المناهج الدراسية ناقصة ، وبها عيبان هما :

–تعليم المجرد قبل المحسوس ، والمقصود بالمجرد ، العلوم الأدبية التي يدخل تحتها علم الكلام و المنطق و الفلسفة العقلية و علم الآداب و اللاهوت الى غير ذلك من نتائج اجتهاد العقل الذاتية ، وبعد ملء رؤوس التلاميذ قسراً بمبادئ هذه العلوم المغلوطة و المتناقضة و العقيمة ، تأتي دور العلوم الطبيعية في المرحلة الثانية ، بعد أن استُهلكت جميع قوى العقل للتلميذ وجُمدت استعداداته الفطرية ، فتُوقع الطالب في ارتباك ذهني شديد ، فلا يستفيد منها.

–ليس فيها اقتصاد في الزمن فتُحمل العقول ما لا طاقة لها به ، من خلال حشو عقل الطفل لسنوات طويلة بما لا ينفعه من علوم الاستظهار و التلقين و الحفظ و التي بمرور الزمن يزول أثرها ، و إن بقي الأثر فإنه بدون فائدة [3]. لأن " **التعاليم الدينية تفصل الانسان عن هذا العالم ... و الحياة الأدبية تصوره فوق حقيقته بكثير كما تتخيل هي لا كما هو فتزيده ضعفاً على ضُعفه** " [4]، و بعدما شخص شميل المرض ، قدم لنا وصفة لمعالجة الخلل و إصلاحه.

فبالنسبة للمعلمين :

---

[1] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر سابق ، ص173 .

[2] المصدر نفسه ، ص175 .

[3] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص36.

[4] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص48.

-وجب أن يكون للمعلم تكويناً جيداً ، مُطلع على علم الأخلاق ، بارعاً في دراسة سلوك كل تلميذ مما يُسهل معاملة كل حالة بما يُناسبها .

-وجب أن يكون من النبهاء ، حتى يتمكن من اكتشاف الميل الطبيعي لكل تلميذ ، و قابلية عقله ، مما يسمح له تصحيح الخاطئ ، وتقوية الحسن .

بالنسبة للتلاميذ :

-وجب الاهتمام بصحة التلاميذ و ذلك بتخصيص الدولة أموال لإنشاء مستشفيات من أجلهم.

-وجب اصلاح المدارس و الاهتمام بغذاء التلاميذ و نظافة أجسادهم و ملابسهم .

بالنسبة لطريقة التعليم :

-تحويل المدارس الى حقول وحدائق ومعامل ليكون العلم تطبيقي وليس نظري فقط.

-التركيز على المواد العلمية القائمة على التجارب والنتائج الملحوظة ، بما في ذلك نظرية التطور ، و إذا كان هناك خوف على الدين ، يقترح شميل تدريسها بشكل علمي مبسط .

-التقليل من العلوم الأدبية و التركيز على ما هو مهم منها ، لكي يستطيع التلميذ يُعبر بلغة واضحة و بسيطة و سليمة عن العلم و نتائجه .

-نشر التعليم الالزامي في الوطن العربي من خلال انشاء كتاتيب على نسبة السكان.

مما سبق نلاحظ الاهتمام الشديد لشميل بإصلاح ميدان التربية و التعليم ، لأن اكتساب الطفل لمبادئ علمية صحيحة ، و تربيته على حرية التفكير ، تجعل هذا الطفل مواطناً صالحاً و نافعاً لنفسه و لحكومته ، ويتجلى ذلك بوضوح في قوله :" **إذا أردت أن تعرف مستقبل أمة ، فابحث عنه في أطفالها فهم نتاج الماضي و عنوان المستقبل ، ابحث عنه في صحتهم وفي تربيتهم و في تعليمهم** " [1].

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص172.

المبحث الثاني : القواعد السياسية للحكومة ، وعلمانية الدولة .

المطلب الأول : القواعد السياسية للحكومة .

أشرنا سابقا الى نظرة شميل لبناء المجتمع ، وتشبيهه بالكائن الحي ، الذي تترابط و تتعاون أعضاءه المختلفة من حيث اختصاصها في الوظيفة ، للحفاظ على استمرار الحياة فيه ، وهذا النص يوضح ذلك: " **كل اجتماع انما هو تعاون ، يبتدئ طبيعياً بمحبة الذات و الشوق ، وينتهي عقلياً باتفاق الارادات أو التراضي في البشر** " [1]، فقانون المصلحة المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد هو ما يجعلهم يُشكلون مجتمع متماسك ، وعندما يدرك كل فرد أن منفعته ، لا تتحقق إلا إذا تحققت منفعة الآخر ، هذا الأمر يؤدي الى التكافل الاجتماعي الذي يقضي على مبدأ التنازع الطبيعي .

و من هذه المُشابهة بين الجسم الحي و جسم العمران استخرج شميل قواعد سياسية مهمة من أجل تحقيق الإصلاح السياسي و الاجتماعي ، يمكن ذكرها فيما يلي :

أولاً : بما أن أفراد المجتمع في ترابط ، فإن أي تأثير على فرد معين أو طائفة مخصصة ، سيشمل جميع أفراد الاجتماع ، و يشبه شميل الحاكم بالطبيب ، فلكي يقضي على مرض داخل جسم المجتمع ، لا يجب أن يُعالج عضو على حساب آخر ، أو إرضاء طائفة على حساب أخرى ، لأن بذلك يخلق الفوضى داخل المجتمع ويقوي طرف على آخر .

ثانياً : الإصلاح داخل المجتمع يجب أن يكون طبيعي لا يناقض نواميس المجتمع ، أي يجب أن يكون الإصلاح نابع من إرادة الأغلبية ، و موافقاً لإرادة الجمهور أو القسم الأكبر منه ، هذا ما يؤدي الى المنفعة العامة و المشتركة لأكبر عدد من الأفراد ، مما يكسبه الشرعية القانونية ، أما إذا كان الإصلاح من أجل إرضاء أفراد أو طبقة معينة من المجتمع على حساب الكل ، فإن هذا ضد الطبيعة و إصلاحٌ يؤدي الى صدمة و هزة عنيفة في المجتمع [2].

ثالثاً : " **قاعدة ثالثة في السياسة ، وهي ضرورة التدرج في الانتقال من حال الى حال** "[3]، أي أن الاجتماع في حال تغيير نظامه و شرائعه القديمة لإحلال الجديدة ، وجب احترام قانون الطبيعة و هو النشوء بالتدرج ، لكي لا تحدث صدمة عنيفة في المجتمع ، فالنشوء تدريجياً من خلال التراضي الجماعي أفضل بكثير من الثورة ، رغم أن شميل يُقر بضرورة

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص49.

[2] المصدر نفسه ، ص49.

[3] المصدر نفسه ، ص49.

الثورة و حتميتها ، للحفاظ على حياة جسم المجتمع ، هذه الثورة كاستثناء ، لكي تنجح و تكون قانونية و قوية ، وجب أن تكون معبرة عن صوت أغلبية الجماهير ، و تحقق المنفعة للجماعية. وهنا يُقابل شميل بين الثورة الفرنسية التي نجحت لأنها توافقت مع إرادة و ميل الشعب كله ، بينما الثورة المصرية العُرابية ، فشلت فشلا كبيراً لأنها جاءت لتعبر عن مصالح شخصية لمطامع ذوي المناصب [1].

و نظراً لأهمية القضاء و المحاكم في الهيئة الاجتماعية ، يضع شميل يده على العديد من النواقص و العيوب التي كانت تعاني منها مؤسسة القضاء ، و التي أرادها أن تتحول الى إدارة فعالة و نافعة في العمران فيقول :" **فالعقاب الذي هو أساس الشرائع عموماً و القضاء خصوصاً ، أثر من آثار الهمجية و بقية من بقايا توحش الانسان الأول ، و ما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فإصلاح الهيئة الاجتماعية به أمر مستحيل** ." [2] هنا نجده يُهاجم فكرة العقاب من الأساس ، لأن الغاية منه هو الانتقام من المجرم ، وهذا لا يحقق المنفعة للمجتمع ، و لا للفرد ، فالسجن في حالة مُزرية مما يُضاعف معاناة السجناء ، و كثيراً ما يخرجون من السجن أكثر اجراماً من الحالة الأولى ،" فمن ينكر بأن السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والرذائل" [3] فهذا النظام فاشل ، لأن المجتمع لم يحمي مصالحه ، بل قام بتبذيرها .

بهذا تحول القضاء من مؤسسة صيانة مصالح الهيئة الاجتماعية الى مؤسسة انتقامية تسطو على أفراد المجتمع . وحسب شميل أصحاب الجرائم قسمان :" **قسم يرتكب الجرم بقصد الكسب أو شهوة أخرى ، وقسم يرتكب الجرم مندفعاً إليه بأسباب أقوى منه من دون أدنى روية أو تبصر في العواقب** ." [4] فالنوع الأول يتحايل على القانون بذكائه و يحمي نفسه من العقاب ، و لا تصل إليه يد القضاء لنفوذه و مركزه ، هذا النوع عند شميل هو المسؤول عن جرمه و وجب عقابه ، و غالباً ما نجده في القصور الفخمة . أما المجرمون المدفوعين للإجرام ، وجب على المجتمع أن يتحمل مسؤوليته اتجاههم ، فيقوم بإصلاحهم ليكونوا نافعين منتفعين

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص50.

[2] المصدر نفسه ، ص119.

[3] مكي حبيب المؤمن و علي عجيل منهل ، من طلائع يقظة الأمة العربية ، د.ط ، دار الرشيد للنشر ، العراق ، 1981م ، ص120.

[4] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص133.

، لأننا " **نحن الذين علمنا الانسان أن يكذب لأنه رآنا نعاقبه على الصدق ، وأن يسرق لأننا حجبنا عنه ما يحتاج .**" [1]

لذلك وجب اصلاح القضاء لكي يقوم بوظيفته الحيوية ، و هي اصلاح الأفراد من أجل خلق مكان مفيد داخل المجتمع ، و الفرد الذي يهدد المصلحة العامة وجب عقابه ، من خلال تحويل قوة الاجرام فيه الى قوة نافعة ، و لا يتحقق ذلك إلا إذا كانت السجون " **تتحول الى مدارس تُعلم فيها الصناعات و تُهذب فيها الأخلاق ... و الى مستشفيات يُعالج فيها مرض الاجتماع كما يعالج فيها مرض الأجسام** " [2].

المطلب الثاني : عَلمانية الدولة .

أراد شميل أن ينهض بمجتمعه العربي علمانياً ، بالتأكيد على أهمية العلوم الطبيعية و الفلسفة المادية ، إذ أن العلم هو غاية التطور في المجتمعات ، التي يمكن لها أن تصلح من غير دين ، ومن غير تدخله في إدارتها و سياستها . كما يُعدد مساوئ تدخل الدين في السياسة [3] ، وبالتالي فإن تحييد الدين عن السياسة مطلب ضروري في فكر شميل العلماني ، تبعاً للآثار السلبية الناجمة عن المزج بينهما.

والعلمانية بالمعنى المادي ، ليست مجرد فصل الدين أو الكهنوت أو هذه القيمة أو تلك ، عن الدولة أو كما يسمى الحياة العامة ، وإنما هي فصلٌ لكل القيم الدينية و الأخلاقية و الإنسانية المتجاوزة لقوانين الحركة و الحواس عن العالم المادي ، أي متجاوزة للإنسان و الطبيعة باعتبارها فلسفة مادية ترد الواقع بأسره الى مستوى واحد ، ويُصبح كله مجرد مادة محضة نافعة نسبية لا قداسة لها ، و قد تم تهميش الإله أو إلغاؤه باسم الانسان الذي أصبح هو مركز الكون دون أي استخلاف من الإله ، وهذا خدمة للجنس البشري [4].

تجدر الإشارة ، الى أن شميل في جميع كتاباته لم يذكر الدين بصفة المفرد إلا نادراً ، وقد ركز على ذكر الدين بصيغة الجمع غالباً ، و هذا دليل على أن شميل لا ينحاز لدين على حساب دين آخر ، فمقصده هو البحث في ماهية الأديان من جانب موضوعي ، معتمدا على المنهج العلمي التطوري الداروينيي ، فهو يبحث عن حقيقة الأديان مهما كانت من حيث

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص120 .

[2] المصدر نفسه ، ص134.

[3] ريم منصور الأطرش ، العلمانية ، سلسلة أوراق دمشق ،عدد 03، مركز دمشق للأبحاث و الدراسات ، د.ت، ص 15.

[4] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، مرجع سابق ، ص ص105-106.

نشوئها و تطورها و أثرها في ارتقاء العمران ، دون أن يَسخر من دين أو يُعلي شأن دين على حساب دين آخر[1].

يقول شميل : " **إن حقيقة الأديان لا دخل لها في العمران ، فنحن نرى شعوباً تقهقرت و أخرى تقدمت في ظل دين واحد ، كما نرى شعوباً ضربت بقسط وافر من التقدم و الازدهار ، بعد قرون من التخلف ، و هي على دين واحد** " ، وهو يستنتج من ذلك أنه لا علاقة للدين بتطور الأمم و تخلفها ، و التخلف لا ينبغي أن يُنسب الى الدين في حد ذاته ، فالحضارة اليونانية بلغت تقدماً باهراً رغم أنها كانت تدين بآلهة كثيرة ، و أوروبا عاشت عصوراً في الظلام رغم أن الديانة النصرانية كان لها انتشاراً قوياً و واسعاً ، وبقيام الثورة اللوثرية في الإصلاح الديني و إعطاء الحرية للعقول ارتقت أوروبا ، إذاً المشكلة ليست في التعاليم الدينية و إنما يُرجعها شميل الى رجال الدين و أنصارهم من الحكام ، الذين كانوا و ما زالوا يُسخرون الأديان لمآربهم الخاصة [2].

و بهذا فإن رجال الدين هم من يقف عقبة أمام تطور المجتمعات باعتبارهم أصحاب المصالح الحقيقية ، و خوفاً على مكانتهم و نفوذهم عملوا على تحريف و المتاجرة بالدين ، فشميل ليس ضد الدين في حد ذاته ، و إنما هو ضد الذين يتكلمون باسمه ، و عندما يصرح بقاعدته التاريخية : " **لا يصلح حال الأمة إلا كلما ضعفت فيها شوكة الديانة ، و لا يقوى شأن الديانة إلا كلما انحط شأن الأمة**" [3] ، فالهجوم هنا على رجال الدين ، الذين يمثلون الواقع المحسوس و المادي لتطبيقات السلطة الدينية على أرض الواقع ، و دراسة شميل لأثر الدين كانت من هذا المنطلق ، فسبب كل الشرور في العالم يرجع لرجال الدين ، وهو لا ينسى الرابطة التي تجمع بينهم و بين الحكام " **فهم وحدهم المسؤولون عما جنوا على العمران و على أُممهم ، و على الدين نفسه بالاشتراك مع الحكام** " [4] لذلك يُبرئ شميل الدين ، و يتهم رؤساءه الذين جعلوا الدين آلة لنشر الفتن و الحروب ، فيقول :" **عفوكم أيها الأنبياء الكرام و يا أيها الرجال العظام ، مما جناه باسمكم على الإنسانية هؤلاء الجهلة الطغاة** " [5].

---

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص76.

[2] ماجد فخري ، الحركات الفكرية و روادها اللبنانين في عصر النهضة :1800-1922 ، د.ط ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1992م، ص104.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص29.

[4] المصدر نفسه ، ص70.

[5] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص256.

وحسب شميل ، تسلط رجال الدين على الحياة الفكرية والسياسية لم يأتِ من فراغ ، بل سببه الابتعاد عن الطبيعية و قوانينها ، والتمسك بالعلوم النظرية المجردة و التي جعلت الانسان ينفصل عن عالمه ، و يضرب لنا مثالاً عن شريعة القرآن فهي " **الشريعة الوحيدة الاجتماعية العملية المستوفاة ، التي ترمي الى أغراض دنيوية حقيقية** "، ويقصد من هذا القول أن الإسلام من خلال تعاليمه حدد كل كبيرة وصغيرة ، في تحديد العلاقات المختلفة داخل المجتمع الواحد ، فحدد الحقوق و الواجبات سواء بين الأفراد ، أو بين المخلوق و الخالق ، فهي شريعة مادية محسوسة ، و" **حتى أن الجنة نفسها لم تخرج فيها عن هذا الحكم من أشجار وأثمار وأنهار**" فالدين المحمدي دين عمل ، لذلك حقق نجاحاً باهراً بتأسيس دولة تحتها تعايشت مختلف الأطياف ، لكن ما لبثت أن تجمدت هذه الشريعة ، و السبب في ذلك عند شميل هو دخول:" **عليهم علوم اليونان الفلسفية و مباحثها المجردة** " ، فانصرفوا الى التجريد و التصوف و الجدال العقيم ... فالذنب ليس في القرآن ، و إنما على الرؤساء الذين بيدهم الحل و الربط [1].

لذلك فإن الدين الحقيقي والطبيعي للإنسان هو دين العلم ، و دين العلم هو إعلان الحرب على الديانات القديمة ، فالعلوم الطبيعية هي أساس العلوم الإنسانية ، ولا تستمد الشرائع السليمة إلا من العلوم الإنسانية الصحيحة ، أما العلوم الزائفة فهي تؤدي الى شرائع وأنظمة حكم زائفة ، و ليس الحكم الديني و الحكم الاستبدادي فاسدين فحسب ، بل هما غير طبيعيين و غير صحيين ، وما مصدر الاثنين إلا المبدأ الخاطئ القائم على تفضيل المنفعة الشخصية على المنفعة العامة ، وهما يُشجعان العقل على البقاء في حالة الجمود ، وبذلك يُعرقلان ذلك التقدم التدريجي الذي هو ناموس الكون [2]، فالحكم الديني يرفع من الملوك الى حد التأليه ، وبفضل نشره الأوهام في عقول المرؤوسين لعقود طويلة ، نجده ينزل بهم الى حد العبيد ، فمن خلال الشرائع " **الأوتوقراطية الاستبدادية البشرية يرهب الملوك هذا الشعب حتى تموت نفسه و يُخيم الجهل عليه و يسلبونه حقوقه** " [3].

وباعتبار الدين صنعة إنسانية ، وفي صلته بالتطور الاجتماعي و العلمي ، يحمل شميل على الدين بقوله :" **النحل و الديانات ... قيامها في الدنيا انما هو لعاملين : حُب الرئاسة**

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص ص353-352.

[2] ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 ، مرجع سابق ، ص299.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص51.

في الرؤساء وارتياح المرؤوس الى حب البقاء وكلاهما لما في الانسان من محبة الذات."[1]

ويقصد في نصه هذا ، أن الدين ذريعة يتذرع بها الرؤساء و الزعماء للسيطرة على ذوي القول الساذجة ، فيمنونهم بالأماني العريضة ، و يُحسنون لهم حال الحياة الآخرة التي لا حزن فيها و لا شقاء ، فما يلبث هؤلاء أن يصدقوا أقوالهم تلك ، و يَتَبِعُونهم ، لما طُبعوا عليه من محبة الذات و التعلق بالبقاء الأزلي [2].

كما أن المعتقدات الدينية المُناقضة للعلم عقبة في سبيل التقدم البشري ، ناهيك بأنها أساس التعصب و التباغض و التناحر بين الأمم ، و إذا " **نظرنا إلى التاريخ ، لرأينا من الدم سطوراً لو جُمعت لكانت بحوراً و ما سببها إلا العداوات التي أثارتها الأديان**" [3]، و يُؤكد شميل مساوئ الدين من خلال مقارنته مع معجزات العلم الحديث ، فالأول أي العلم الإلهي رغم أن هدفه السامي هو توحيد الشعوب و الأمم ، إلا أنه فشل في ذلك فشلاً كبيراً ، فلم يُحقق إلا الحروب و القتل و التعصب و الكراهية ، أما العلم ، فقد نجح في نشر التسامح و توحيد الشعوب من خلال النتائج المادية العلمية ، و هذا ما لمسه الانسان في حياته الواقعية ، و إذا كان الدين سلط على الشعوب ملوك مستبدين ، فإن العلم خاصة مع النظرية التطورية جعل كل الناس من أصل واحد .

ومن أسباب عداء شميل للدين ، تقييد حرية الانسان ، فيقول :" **ولو لم يكن في الديانات سوى تقييد حرية الفكر ، لكفى أن تكون علة شقاء الانسان في دنياه .**"[4] أي أن الحرية هي أهم حق فطري تربوي واجتماعي وسياسي ، يسمح للإنسان بتغيير وتطوير أوضاعه و تحسينها ، وهذا ما يتوافق مع قانون الطبيعة الذي يأبى الثبات ، لذلك الحرية مطلب وجودي للإنسان ، حتى أن شميل سمح بالثورة كحل عاجل لقلب الحكومات الاستبدادية ، من أجل بلوغ الحرية المطلقة ، فإذا كان الانسان يعتقد بأرواح تحيط به من كل جانب وتتصرف في حياته ورزقه ومستقبله ، فهذا الوهم يقضي على العمل والتطوير تحت دعوى كل شيء مُقدر مسبقاً .

ومن مساوئ الدين الأخرى التي تطرق إليها شميل هو جمود الشرائع الدينية ، وثبات تعاليمها المقدسة ، في حين أن الانسان حياته تتطور وتتغير عبر العصور والأزمنة ، وهذا ما يرفضه شميل بصفته عراب الداروينية التطورية في الشرق ، فإذا كان لكل مرض علاجه

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص21.

[2] ماجد فخري ، الحركات الفكرية وروادها اللبنانين في عصر النهضة :1800-1922 ، مرجع سابق، ص103.

[3] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص30.

[4] المصدر نفسه ، ص29.

الخاص يناسب مريض معين دون سواه ، فكذلك الأمر بالنسبة للشرائع ، فيقول :" **لما كانت أحوال هذا العصر مثلاً تختلف عن أحوال ما قبله أو ما بعده كان من العبث بالحقوق المقدسة إطلاق شريعة عصر على عصر آخر لا يمكن أن يكونا متفقين ... طبيعياً وسياسياً** "[1]، فليس من العدل أن تبقى نفس الشرائع ، والعلم الطبيعي ينقل الانسان من قفزة الى أخرى.

ومما سبق فإن الشريعة" **لا يجب أن تقبل من أيدي الآلهة بل من ايدي البشر** "[2]، وهكذا أنزل شميل الشريعة من السماء الى الأرض، لتتطابق مع رغبة الانسان الحثيثة في السير قُدُماً نحو الارتقاء دون معوقات ، وبهذا يقوم باستبدال الدين الكلاسيكي المشوه بأيدي زعمائه ، بالدين الطبيعي الذي يستند على العلم الطبيعي [3].

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص35.

[2] المصدر نفسه ، ص35.

[3] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص84.

المبحث الثالث : جمهورية شميل ، وحتمية الاشتراكية .

المطلب الأول : حتمية الاشتراكية .

يُعد شميل أول من نشر بالعربية فكرة الاشتراكية ، و إن لم يكن أول من سماها بهذا الاسم ، ومن الواضح أن القضية التي تبناها لم تكن قضية الاشتراكية الأوروبية ، أي قضية الملكية الخاصة أو العامة لوسائل الإنتاج ، فهذه ليست مشكلة مصر التي لم تكن قد تعرفت بعد الى الصناعات الحديثة ، ولكنه اهتم أساساً بموضوع الحدود التي يسمح للدولة فيها بالتصرف ، وعندما سمى نفسه اشتراكياً ، كان يقصد أن الدولة يجب أن تتدخل إيجاباً في المشاكل الاجتماعية لتحقيق الرفاهية للشعب [1].

و قد شدد شميل ، الذي كان مُلماً بالفكر الاشتراكي ، على التمييز بين الاشتراكية ، و هي الترجمة العربية المضللة للكلمة الفرنسية (socialisme) وبين الاجتماعية و هي الترجمة الصحيحة . وكان يقصد أيضاً أن الاشتراكية تعني شيئاً مختلف كثيراً عما تعنيه كلمة الاشتراكية في اللغة العربية ، و ربط الكلمة بأصلها المجتمع ، فكلمة الاشتراكية تعني الاجتماعية وليس المساواة المطلقة [2].

إن وصول شميل لتبني الاشتراكية يستند لتحليله لواقعه المُتردي ، فقد كان عمله كطبيب في بداية حياته العملية في الريف المصري (طنطا) ، فرصة سمحت له التعرف مباشرة و بسهولة على أوجه الفقر و الأمراض و القهر الاجتماعي ، في الوقت نفسه و على النقيض من هذا ، و بصفة مباشرة كذلك ، كونه أحد أبناء العائلات البرجوازية ، نجده مُلماً بحياة الرفاهية لهذه الطبقة ، فقد رأى و عايش كلا الوجهين في المجتمع الواحد ، الفقر المُدقع و التبذير السفيه ، مما حرك نزعته الإنسانية و بالتالي الفكرية [3]، فيقول :" **رأيت الغني الشبعان يبلع الجمل و يتستر ، و الفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الأسمر ، و القانون يُكافئ ذلك برفع القبعات و يُعاقب بالسجن سنوات** " [4].

والاشتراكية ليست مذهباً فلسفياً أو سياسي ، بل هي نتيجة طبيعية وحتمية لتطور و ارتقاء المجتمع البشري ، وهي ليست أحلام زائفة كما يتهمها خصومها الرأسماليون ، بل هي واقع يمكن تجسيده في المجتمع ، فهي تُخبرنا عن وجود طبقة ضخمة مسحوقة في

---

[1] ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 ، مرجع سابق ، ص302.

[2] هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب ، ط2 ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1978م ، ص93.

[3] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص110.

[4] شبلي شميل ، المجموعة ، مصدر سابق ، ص157.

المجتمع العربي ، كما تُسلط الضوء على الانسان العادي ، وتُريد أن " **تُقلل من ويلاته ، فتضمن له حاجاته و تصون حقوقه بعد أن تفرض عليه واجباته ، و ترفعه من تحت مواطئ الأقدام الى مقامه كانسان ، و تُعلمه أنه عضو من الاجتماع لا يجوز أن يبقى عالة عليه غير نافع ، و أنه عامل فيه لا يجوز أن يبقى غير منتفع** "[1] ، هذا هو مبدأ الاشتراكية ، التي تُريد اصلاح مركز الانسان في العمران ، وهذا ليس مستحيلاً أو أضغاث أحلام .

إن ظهور الاشتراكية حسب شميل ، راجع لقانونان عظيمان يتحكمان بالطبيعة و العمران على حد السواء ، " **أحدهما يُوجب التنازع و هو تكافؤ القوى في العمران كتكافئها في الطبيعة ، و الآخر يُوجب الارتقاء و هو تكافل العمران بتوفير قواه كتكافل العالم أجمع بتوفير قواه في ارتقائه** " [2] ، وسبب انحطاط وتقهقر الاجتماع هو أن المجتمع شديد التنازع قليل التكافل.

يتمثل القانون الأول في تكافؤ القوى في العمران ، وهو يقوم على التنازع للبقاء ، يُحركه مبدأ محبة الذات (الأنانية) ، هذا القانون الطبيعي يؤدي بالإنسان الى الجد و التفاني في العمل للحصول على أحسن نصيب من المنافع ، و هو ركن أساسي لارتقاء الاجتماع ، استمات شميل في الدفاع عنه كمبدأ للنظرية الداروينية ، إلا أن ما يُحسب له هو فرملته لنتائج مبدأ التنازع الذي لا يرحم من أجل البقاء ، فالسير به في الاجتماع الى النهاية يؤدي الى نتائج خطيرة ، لم يشأ شميل أن يتحمل عواقبها أبناء مجتمعه الضعفاء[3] .

بهذا خالف أساتذته من الغربيين و على رأسهم " بُخنر" ، فقام بتطويع و تكييف أدوات الداروينية لكي تتماشى مع المبدأ المنقذ أو الاشتراكية ، فالحل هو إبقاء قانون التنازع الذي لا مفر منه لأنه ناموس الطبيعة ، ولكي لا يؤدي الى التناحر و الاستغلال وجب أن تتدخل قوة خارجية تقوم بتطويعه و تعديله ، لكي تتحقق المنفعة الخاصة و المنفعة العامة معاً ، هذه القوة المنظمة هي الحكومة و وظيفتها تحقيق التوازن بين المصلحتين [4].

وبالتالي التنازع لا يبقى مفتوح بل يكون مُهذباً و موجهاً لمنفعة الفرد ، والذي بدوره مقيد بمصلحة الجماعة والعكس صحيح ، أي تحقيق المصلحة المتبادلة ، " **فإن كانت الأنانية**

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص172.

[2] المصدر نفسه ، ص173.

[3] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص112.

[4] المرجع نفسه ، ص ص112-113.

(حب الذات) تحمل الكائنات على جذب النافع اليها ، فالمصلحة تدعوها الى توفير مصلحة سواها حُباً بنفسها ، و عملها هذا ليس رحمة أو تفانياً في حب الغير بل عن ضرورة " [1].

وكل فرد في المجتمع مهما كان وضعه أو مرتبته الاجتماعية ، إلا وله دور فعال من خلال التفاعل في المنافع المتبادلة أو المصلحة المشتركة ، و بهذا يقطع شميل الطريق عن الرأسماليين و الذين يسميهم " لصوص المجتمع " لكي لا يتظاهروا بالإصلاح الخادع ، و يَعطِفون ويَرحَمون على من لم تمده الطبيعة بالقوة الكافية للحصول على ما تستقيم به أموره ، فيكون الحلقة الأضعف في التنازع لضعفه أو سقمه ، هؤلاء الأفراد المطحونين ، لا يحتاجون شفقة الرأسماليين ، لأن في الاشتراكية كل فرد نافع و منتفع بقوة عمله ، " **لا نتركُ للإنسان على الانسان مَناً ، لأننا ننظر في ذلك الى المصلحة المشتركة ، ففي العمران كما في الطبيعة لا يضيع شيء ، ولا يضيع تأثيره ، والتأثير الذي يُحدثه الفرد في الاجتماع لا يُدرك أهميته إلا الذي يُقدر ناموس تكافؤ القوى في الطبيعة قدره** " [2]، فبعض التأثيرات تظهر للناظر على أنها عديمة التأثير لضآلتها ، ولكن عند تفاعلها مع عناصر أخرى ، ومع مرور الوقت يتعاظم تأثيرها في الطبيعة ، مثل ذلك الشرارة الصغيرة في البارود تُحدث انجار و تأثير هائل ، وفي بعض الأحيان كلمة صغيرة تتناقل من شخص الى أخر تؤدي الى جريمة كبيرة أو حرب أهلية .

يقول شميل :" **فعلى هذا الناموس تتمشى أفعال الانسان في العمران ، فإذا أحسنا أو أسأنا الى الاجتماع فإنما نُحسن ونُسيء الى أنفسنا ... فالاجتماع يَرُدُ لك كل شيء تنفخه به برباه**" [3]، أي أن المجتمع لا يقوم إلا بقانون التعاون بين أفراده ، بحيث أن كل فرد يؤدي العمل الذي لا يستطيعه سواه ، ويستفيد من الآخر المنفعة التي لا يستطيعها وحده . فحق الفرد على الكل مثل حق الكل عليه ، و أي إخلال لهذه القوانين الطبيعية للمجتمع تعود عليه و على أفراده بالسلب .

ولتوضيح ذلك يضرب لنا شميل أمثلة : كانتشار الأمراض ، فهناك طبقة من الناس لذكائها جمعت ثروة على حساب العمال ، فسكنت القصور ، و تمتعت بالصحة لأن الماء نظيف و الطعام صحي و الهواء نقي ، غير بعيد عنهم آلاف الأكواخ المتراكمة ، يزدحم

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص401.

[2] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص174.

[3] المصدر نفسه ، ص174.

السكان فيها كالذباب ، لا شمس و لا هواء و لا ماء ، فحتماً الطبقة الأولى ستُصاب بعدوى الأمراض ، وهذا من سوء عملها داخل المجتمع [1] . وحتى الرأسمالي الذي يُعطي للعامل دراهم معدودات مقابل عمله المُتعب ، فإن هذا العامل البسيط في تأثيره ، مع مرور الوقت و بالاتحاد مع باقي العمال المُستغَلين ، سيكون شرارة لثورة كبرى ضد الرأسمالي ، الذي جنى نتائج سلبية لأنه قدم أمور سيئة للمجتمع ، فما نفعله مع كل واحد في الاجتماع ، يجب فعله حِرصاً على مصلحتنا ، و مصلحة الاجتماع نفسه ، و التي هي مصلحتنا أيضاً [2] .

أما القانون الطبيعي الثاني الذي يسوس المجتمع الاشتراكي ، فيتمثل في قانون التكافل في العمران لتوفير قواه و عدم تبذيرها ، واستغلال قوة كل فرد داخل المجتمع لأقصى حد ، وجعله مفيد لنفسه ولغيره ، فلا يضيع أي مورد ، مثله في ذلك مثل الاستغلال الأمثل و الكامل لقوى الطبيعة و الاستفادة منها بأحسن طريقة و عدم التبذير فيها ، و هذا ما يُسميه شميل " ناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي " [3].

فلا شك أن الاشتراكية " **إذا أُريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلماً بارداً** " فالبطال اذا كان يحصل على المنفعة من المجتمع دون أن يعمل ، فهذا هدرٌ لطاقة هذا الانسان و خسارة للمجتمع لأنه لم يستفد من أحد أفراده ، و قد يتحول الى عضو شرير يُسبب الأضرار للمجتمع . و إذا كانت الاشتراكية تعني" **الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل ، فلا شك أنها تكون جُوراً و مميتة لكل اجتهاد** " والمقصود هو المساواة في الأجر بين العمال الذين يختلفون في الإنتاج و الجهد المبذول و المسؤولية ، فهذا حتماً فيه ظلم لأن راتب المجتهد نفسه غير المجتهد ، و هذا ما تؤدي الى كسل المجتهد ، و ضياعٌ لطاقة قد يستفيد منها صاحبها و المجتمع ،" **ولكن إذا كانت الاشتراك في المنفعة على نسبة العمل ، ألا تكون حينئذٍ عدلاً و أكبر حاث على الاجتهاد ؟**" وهنا يقارن شميل بين عاملين الأول لديه أجرٌ معلوم أما الثاني فإنه ينال فوق أجره نسبة معلومةٌ من الفائدة ، حتماً سيبذل كل طاقته و مجهوده في العمل و هذا ما يحقق الفائدة للعامل نفسه و لصاحب العمل و للمجتمع [4].

---

[1] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ص174.

[2] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص384.

[3] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص205.

[4] المصدر نفسه ، ص ص208-209.

فأحسن نظام اجتماعي هو الذي يهتم بشؤون الأفراد ، ويعمل جاهداً من خلال خلق مؤسسات اجتماعية مهمتها هي توفير العمل كلٌ حسب طاقته و قدرته ، أي وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، فيُصبح " **كل أعضائه عاملين نافعين منتفعين معاً ، فلا يكون هناك تبذير في قوى المجتمع ، و لا حيف على الأفراد يعودان بالضرر على المجتمع** "[1]، و بالتالي فإن قانون التكافل القائم على تقاسم المنفعة على قدر العمل ، يُؤدي الى العدالة الاجتماعية ، فهو يُخفف من شدة وطأة قانون التكافؤ القائم على التنازع ، و من جهة ثانية يعرف المجتمع كيف يستفيد من جميع أفراده و يتقي شر تبذير القوى في الاجتماع ، فيتعلم الانسان أن حقوقه تتحقق تلقائياً وطبيعياً إذا قام كل فرد بواجباته ، وبهذا يصلح العمران [2].

و حسب شميل ، تحقيق هذا النظام المستقبلي ليس مستحيلا و لا خيالي ، بل هو نتيجة لازمة و حتمية لتطور المجتمعات على أسس طبيعية ، و الاشتراكية بهذا المعنى تحقق الفضيلة ، لاتباع أعمال المجتمع نواميس الاجتماع ، وما الرذيلة إلا مُخالفة هذه النواميس[3] ، و بوسع الانسان تعجيل خُطاها من خلال العلم الطبيعي ، فتحل محل الأنظمة القديمة المخالفة للطبيعة .

في سنة 1908م وضع شميل منهاج للحزب الاشتراكي في مصر ، فرأى أن للحزب سياستين ، الأولى تقويضية سلبية و الثانية بنائية إيجابية : الأولى هي السعي لإزالة جميع الكتب غير النافعة ، ومدرسة الحقوق ، والجامعة الجديدة ، و المحاكم المختلطة ، والشركات المحتكرة لتوزيع المياه ، و الصحف التي تزرع الشقاق بالتحدث عن المسلم و القبطي و الدخيل . أما السياسة الإيجابية تتمثل في انشاء على انقاض هذه المؤسسات ، جامعة حقيقية تُدرس فيها العلوم ، و مدرسة تقنية بدلا من مدرسة الحقوق ، ومحاكم محلية بسيطة ، ومؤسسات عامة لتوزيع المياه ، و مدارس ابتدائية في كل قرية وحي ، و صحافة لائقة لتنوير الرأي العام [4]، هذه الأفكار البدائية عن الاشتراكية ، تطورت فيما بعد لتصل الى نتيجتها المتوقعة لها ، فقد ساعدت على اطلاق الحركة الدستورية في مصر و في الإمبراطورية العثمانية .

---

[1] شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص21.

[2] شبلي شميل ، فلسفة النشوء و الارتقاء ، مصدر سابق ، ص53.

[3] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص208.

[4] ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 ، مرجع سابق ، ص302.

المطلب الثاني : جمهورية شميل .

إن فكر شميل السياسي الليبرالي ، يقوم على التحرر من قيود الدين ، و التحول من "الإله " الى "الانسان" كمرحلة أولى ثم التحول من "الإلهيات" الى "الانسانيات" في مرحلة أخيرة ، على أن الانسانيات قائمة على العلوم التجريبية كمنهج صحيح و مُصحح للعلوم المجردة الزائفة ، هذا الفكر الليبرالي الغربي ، اتخذه شميل نموذجاً وحيداً للتحديث و النهضة [1] ، و يتضح ذلك في دعوته لطريق الجمهورية الديمقراطية .

فقد أراد أن يصل بفكرة النشوء والارتقاء الى نهايتها ، سواء على المستوى الفكري و اللاهوتي وهو القول بمادية الكون ، أو على المستوى السياسي وهو تحطيم فكرة الحكم باسم الله في الأرض ، وهو ما يعني تحقيق " **العدل كل العدل في الانتقام من الظالمين** " [2] ، الأمر الذي يفسر الهجوم الحاد الذي قاده شميل على رجال الدين ، فالظلم يتجسد في النظام الثيوقراطي ، أين يستغل رجال السياسة والدين معاً ، عامة الشعب بوهمهم أن الخلاص في أيديهم ، فأصبحت كل الحقوق ترتكز في يد الطبقة الحاكمة و من وراءها رجال الدين ، و كل الواجبات كانت من نصيب الأغلبية من الشعب ، و هذا مقصد قوله :" **بالشرائع الثيوقراطية يترفع الرؤساء عامة عن الشعب و يستأثرون بامتيازات يجعلون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جداً الى الاستماتة بالتقشف ، وحقوقه معهم قليلة الى حد الاستهانة بنفسه** "[3] .

و حسب شميل هذه الوضعية المزرية التي تعيشها الأمة ، هو جهل الانسان حقيقته و توارثه للأوهام و الخيالات ، مما يُسهل هضم حقوقه ، و الاستبداد به ، فيقول :" **الأمة الهائمة في قفار الوهم لا تكون شيئاً في الوجود بالنسبة الى مَلِكها ، بل هو كل شيء و تاريخها ليس سوى تاريخ ملكها** "[4] ، فإذا اعتنق الانسان العلم الصحيح ، و الذي يتمثل في النظرية التطورية الداروينية ، سيدرك حتماً حقيقة نفسه و حقيقة الآخرين ، و يدرك أنه كائن قابل للتطور و التحسين في أحواله ، و أن الملوك و زعماء الدين ليسوا من طينة عجيبة ماورائية ، بل الكل سواء من حيث الحقوق و الواجبات ، و أن القوانين والشرائع التي تسير حياته ليست منزهة و مطلقة ، بل هي الأخرى بشرية متغيرة حسب قوانين الداروينية .

---

[1] أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، مرجع سابق ، ص ص535-536.

[2] عبد الإله بلقزيز ، الثقافة العربية في القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص226.

[3] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص51.

[4] المصدر نفسه ، ص38.

وأكبر دليل على فرضية شميل هو ما كانت تكابده أوروبا من استبداد ملوكها ، نتيجة جمود الفكر و العقل الأوروبي لسيطرة رجالات الكنيسة في جميع المجالات ، بالإضافة الى انتشار العلوم السخافية التي زادت من حدة الأوضاع ، لكن بعد الثورة الفرنسية و التي مهدت لها الثورة اللوثرية ، تحرر العقل من أوهامه ، و ساد العلم الحقيقي مكان الزائف ، هذا ما أدى بالأمة الأوروبية الى تأسيس" **حكومتها على الشورى ... وصارت الأمة هي الحاكمة عوضاً عن الملك ، و في بعضها صارت جمهورية.** "[1] ، و هذه الجمهورية هي الهيئة الحكومية المُعدة للمستقبل حسب شميل ، فسرعة نماء العلوم الطبيعية يؤدي الى سرعة نمو الأفكار في طلب الحرية ، وغرض العلم هو حل العقل من قيوده ليصير حراً .

و الجمهورية التي يريدها شميل هي :" **الجمهورية الحقيقية التي يتم فيها توزيع الأعمال على قدر المنافع العمومية ، بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد في الاجتماع بدون أي تمييز مطلقاً ، والتي تتوفر معها قوى الاجتماع بحيث يقل التبذير و التفريط بهذه القوى ما أمكن** " [2]، أي أن جمهوريته قائمة على خدمة كل أفراد المجتمع دون إقصاء ، على أساس التعاون المشترك لتحقيق المصلحة المشتركة ، و هذا يتطلب نظام سياسي يُشارك فيه الكل بإرادته الحرة القائمة على أن حق الفرد هو واجب للآخر ، وأن حق الأخر هو واجب الفرد .

و هكذا فإن بلوغ جمهورية شميل ، ملتبس بنزعته المُطالبة بالحرية ، بحيث أنه كان مُشرعاً للثورة ، فلا يمكن الوصول الى نظام كهذا ، إلا عن طريق حركة الجماهير ، فالشعب هو الذي يقرر كل شيء ، حسب ارادته التي تقوى بشيوع العلم الصحيح ، فإذا رفض الاستبداد زال الاستبداد ، و إذا خضع واصل الطغاة طغيانهم ، فلا بُد أن تتحرك الأمة ، لأن " **الحكومات جميعاً ، و حتى لو كانت في أعلى ذرى الإصلاح ، تقتل مصالح الجمهور كل يوم** " ويضيف شميل " **لا تنتظر أن تكون الحكومة أصلح من الأمة ، بل لا تُلام الحكومة إذا داست بأخمصها رقاب الرعية ، و هل تُدس رقاب تأبى أن تُداس** " [3]، على الأمة أن تتحرك و أن تثور ، لكن أي نوع من الثورة يريد شميل " **فالاجتماع لا بد له في بعض الأحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك ، ويلزم أن تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن للشعب** " [4]

---

[1] شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، مصدر سابق ، ص38.

[2] المصدر نفسه ، ص39.

[3] شبلي شميل ، مباحث علمية و اجتماعية ، مصدر سابق ، ص190.

[4] المصدر نفسه ، ص41.

، أي أن الثورة وجب أن تكون من دعوة الأغلبية داخل المجتمع ، فإذا نجحت تحققت المصلحة العامة .

والثورة المنتظرة و التي لابد منها ، هي ثورة تنتصر فيها الشعوب والأمم بعضها بعضاً ، لقلب حكوماتهم و تغيير نظامها من الحكم الاستبدادي الديني الى الحكومة الجمهورية الديمقراطية التي " **تُصبح فيها الأمة الكل و الحكومة لا شيء** " وبهذا يتحقق العدل [1].

كما أن التعصب القومي الأعمى ، عند شميل لا يقل شراً عن التعصب الديني الأعمى ، لذلك لابد أن تحل "الوطنية العالمية" محل الولاء للوطن محدد ، و هنا تتضح النزعة الإنسانية لشميل ، و يتضح هدفه في جعل العالم كله وطناً واحداً ، و أهله شعباً واحداً ، و لا يتم لهم ذلك إلا إذا التفوا كلهم حول كعبة العلم الصحيح ، فالتقدم الاجتماعي يواكب التقدم العلمي ، مما يجعل مفهوم الوطن يتطور بدوره ليشمل العالم كله ، و هذا استناداً لقانون التطور في الطبيعة ، حيث أن القاعدة في الطبيعة توحد بين عناصرها المختلفة ، بحيث يصبح الانسان و الحيوان و النبات و الجماد من أصل واحد ، فإن مسألة توحيد الأمم جميعاً بانتفاء النزعات الوطنية ، تصبح مطلباً حيوياً و عاجلاً ، يتوافق مع التطور الطبيعي ، لتحقيق مصلحة و سعادة الإنسانية جمعاء [2].

و المرتكز الرئيسي الذي تُبنى عليه جمهورية شميل ، هو تقديس الحرية ، " **فإذا سلبت الحرية من أمة امتنع العدل ... و إذا انتفى العدل و ساد الظلم فلا جرم أن ينطفئ نور العلم** " [3]، حتى أنه دافع عن حرية الرأي لخصومه ، فهو يُهاجم رجال الدين ، لكنه يرفض في نفس الوقت الموقف المتعسف الذي اتخذته الثورة الفرنسية منهم ، و هو يرفض أي خدش لحرية الاعتقاد لخصومه و لأصدقائه على السواء[4].

و فكرة الحرية عند شميل تستحق التأمل ، فهو يدعو للحرية المطلقة غير مقيدة بأي قيد ، حتى قيد الدستور والقوانين ، فالقانون عنده مجموع شبهات و ظنون ، و هو عقبة في سبيل تقدم الانسان ، أما عن الدستور فهو يقول متحدثاً عن نفسه " **انني حر، كأحرارنا ولكني غير دستوري ، فلا أقيد الحرية بالقانون ، لئلا أكون به حراً في الاستبداد أو مستبداً في حرية**"[5]

---

[1] مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة و التطور عند شبلي شميل ، مرجع سابق ، ص107.

[2] المرجع نفسه ، ص206.

[3] شبلي شميل ، كتابات سياسية و اصلاحية ، مصدر سابق ، ص09.

[4] رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، مرجع سابق ، ص54.

[5] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص228.

، بل هو يرفض أن ينضم الى أي جمعية حتى و لو اتفق معها في الرأي ، فهو يريد أن يبقى حراً دون أي قيد بنظام أو زمان .

قد يُفهم من هذا القول أن شميل يدعوا الى الفوضوية ، إلا أنه في الحقيقة يدعو الى اللانظام الذي يؤدي الى النظام المُتحرك ، و ليس النظام الثابت الذي يؤدي الى الفوضى و الظلم ، فهو يرفض أن يكون للكون مدبر واحد ميتافيزيقي و ثابت ، لأن نتيجة الايمان بالقوى الغيبية هو الفوضى و الحروب و الأنظمة المستبدة.

أما اللانظام (الحرية المطلقة) يؤدي مع مرور الوقت الى نظام ، مثل عدم انتظام المادة في حركة ذراتها ، التي تتحرك من تلقاء نفسها ، و بعدها يسود النظام بشكل آلي من تلقاء نفسه ، تماماً كما يحدث في عالم الأشياء و الحيوان[1] ، فنظرة شميل هنا جوهرية وليست عَرَضية كنظرة أصحاب المبدأ الواحد ، و يُوضح ذلك بقوله :" **اللانظام الذي ندعو إليه ليس كأوس الأقدمين و لا فوضى المحدثين ، وإنما هو نظام أيضاً ولكنه مُتحرك**" [2].

[1] عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، مرجع سابق ، ص76.

[2] شبلي شميل ، مصدر سابق ، ص229.

نتيجة:

مما سبق نصل الى نتيجة مهمة ، وهي أن شميل فوق أنه طبيب ناجح ذو نزعة علمية تطورية ، هو كذلك مصلح اجتماعي واشتراكيٌ نشط ، صاحب رؤية تطورية لمجال التربية و التعليم واصلاح المستشفيات ، كما أنه تطرق للقضاء لأهميته الخطيرة في حكومته ، والجمهورية الديمقراطية التي دعا اليها شميل ، ليست بعيدة المنال ، أو أنها سباحة حرة في الخيال والأوهام ، بل إن مشروعه النهضوي سيكون ناجحاً ومناسباً للشرق ، لأن الأساس الجوهري للنهضة وقيام دولة قوية عنده ، هو العلم التجريبي ، الذي يحرر العقل من قيود الماضي و يجعله حراً ، فينتشر الوعي عند الرعية ، مما تجعلها تشارك في شؤون الحكم عملاً بناموس التعاون و التكافل ، و أفضل سلطة سياسية هي النابعة من المصلحة المتبادلة بين الناس وهي المعيار الرئيسي للقانون العادل ، و إذا كان شميل أبعد الدين عن الحياة السياسية و الاجتماعية و التربوية ، فإنه بذلك لا يُعادي الدين ، وإنما يُعادي و يُهاجم رؤساءه . هذا التطور المحتوم النابع من قوانين الطبيعة ذاتها ، يكون في بدايته صعباً و يحتاج الى وقت طويل ، إلا أنه ليس مستحيلاً ، و الذي يُعجل النهضة العربية ، هو فقط العلم النافع ، و إذا كان هناك شك في نهضة شميل العلمية ، فإنه يدعونا الى استقراء تاريخ الأمم ، التي حققت رغم الصعوبات تطوراً باهراً بفضل العلم الحسي.

الخاتمة

خاتمة:

في الختام ، و بعد الدراسة المعمقة للفلسفة المادية التطورية الشميلية ، يمكن القول أن أفكار شميل ما هي إلا نتيجة ظروفه و عصره ، فقد شكلت مشكلات عصره و آراء معاصريه ، المادة الحية التي ألهبت تفكيره و شحذت قدراته الفكرية للتصدي و المعالجة ، لذا فلن نغالي حين نقول إن شميل لم يكن إلا الانعكاس الفعلي لهذا الواقع و لكن من جانبه العلمي .

و عند تطرقنا بالدراسة لفلسفة شميل التنويرية ، وجدنا أن المواضيع التي تناولها متعددة متشعبة ، إلا أن هذا يدل على حرصه الشديد على نشر الروح العلمية في جميع الميادين ، مستنداً لنواميس المذهب الداروينى ، الذي نجح في نشرها في العالم العربي لأول مرة ، واستطاع أن يطبع عصره و ما بعد عصره بطابع طغت عليه مصطلحات النشوء و التطور ، ليس في موضوع العلوم فقط ، و لكن في شتى مجالات الفكر والحياة العملية ، وحتى العلوم الإنسانية والآداب . و فيما يلي أهم الأفكار التي تحكي قصة تطور الكون و المحكوم بقوانين النشوء و التطور :

– رسخت التطورية الشميلية أفكار الواحدية المادية الكونية ، التي تذهب الى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء ، مادة خالية من الغرض و الهدف و الغاية ، و لا توجد ثنائية في الكون إذ يُرد كل شيء للمادة ، و يُفسر كل شيء بالتطور المادي .

– العالم كله في حالة تطور دائم ، من خلال التنازع و الصراع الدائم بين الكائنات و الأنواع جميعها من أصغرها الى أكبرها و من أحقرها الى أعظمها ، فالصراع حتمي و الذي يحركه هو ناموس محبة الذات أو الأنانية من أجل حفظ الذات ، و الكائن أو النوع الذي ينتصر على الكائنات و الأنواع الأخرى ، و يحقق البقاء المادي لنفسه ، يُثبت بالتالي أنه نوع أرقى من الأنواع الأخرى إذ حقق البقاء على حسابها ، فبقي هو بينما كان مصيرها الفناء .

– النوع الذي ينتصر يُوَرثُ الخصائص التي أدت الى انتصاره الى بقية أعضاء النوع ، بمعنى أن التفوق يُصبح عنصراً وراثياً ، و السبب الذي يؤدي الى تغير الأنواع هو الاختيار الطبيعي.

– كل الأنواع العضوية ظهرت من خلال عملية طويلة من التطور، بما فيها الانسان الذي هو جزء من هذه الطبيعة وهذه المادة ، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الانسان والاشياء ، آلياته الصراع و الانتخاب الطبيعي .

– ان محبة الذات ترتقي لدى الكائنات الحية لتشمل المشاركة من أجل تحقيق المنفعة ، و التي بدورها تحفظ للذات لذتها ومنفعتها ، عملا بناموس التكافؤ ، حيث ينقل هذا التنازع من بين الأفراد المنعزلة مرتقياً الى الجماعات المنضمة في مصلحة واحدة مشتركة .

– المجتمع يتكون من أفراد مختلفين في مصالحهم بسبب محبة الذات، إلا أن انتشار المعرفة الصحيحة يدرك كل فرد أن مصلحته لا تتحقق إلا إذا تحققت مصلحة الآخر، وبهذه القاعدة الذهبية يبني شميل مجتمعه على أساس التعاون من أجل المصلحة المشتركة، فيصبح الفرد للكل والكل للفرد.

– نفور الانسان من الألم، والذي يتجسد بصورة عظمى في الموت وفناء الذات ، أدى بالإنسان الأول الى اختراع الأديان ، بُغية بلوغ الخلود الأبدي مما يجعل الانسان يُريح الذات ، فالدين هو من إفرازات الجهل و الوهم ، و لا وجود لقوة مطلقة و مدبرة للكون .

– القوانين الأخلاقية هي مجرد تطور لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطوراً و الحرص الغريزي على البقاء البيولوجي ، و هذا يعني أن القانون الأخلاقي أصله اللذة و محبة الذات أو الأنانية ، و هو مرتبط بالغاية حتى و إن أخطأ الانسان الوسيلة ، و تكثر أخطاء الانسان و شروره كلما قلت معارفه و تجاربه المكتسبة .

– العلم القائم على التجارب المعملية و الاختراعات الحديثة ، هو مفتاح التطور و تقدم الانسان في شتى المجالات ، و الدين الحقيقي الذي يستحق العبادة و التقديس هو العلم الطبيعي ، القائم على نظرية التطور، التي حددت القوانين الطبيعية لكل مظاهر الكون و ما على الانسان إلا اكتشافها ، وتطبيقها في حياته العلمية و الثقافية و الاجتماعية و السياسية .

– بفضل نظرية التطور العلمية يصل الانسان الى حقيقة أصله الواحد الطبيعي، بعيداً عن أوهام المعجزات الغيبية، هذا ما يجعله يدرك يقيناً أن ملوكه المستبدين من نفس طينته و مادته ، و أن له حقوقاً طبيعية ، و بالعلم الصحيح يتنور وعيه و يصبح قادراً على المطالبة بها ، بعد أن يُنزل الملوك من سمائهم .

– انتشار الوعي السياسي مرتبط بالتربية السليمة ، القائمة في بدايتها على الأم المتعلمة التي تغرس في الطفل حرية التفكير ، ثم التعليم المدرسي كمؤسسة ثانية بعد الأسرة ، و التي وجب

أن تكون مبنية على مناهج علمية صحيحة ، و ليس على العلوم النظرية المجردة ، التي ساهمت لقرون طويلة في زرع الجهل و تنمية قوة الخيال مما جعل الانسان ينفصل عن واقعه.

– شميل ليس ضد الأديان ، بل هو ضد تُجار الدين الذين مهدوا الطريق لفساد الملوك ، و بتعدد الأديان واختلافها ، انتشر القتل والحروب ، بينما دين العلم ، وبفضل إنجازاته العظيمة أدى الى التسامح و توحيد الشعوب ، لذلك نجد شميل يُبعد الدين عن الحياة العامة و بالأخص السياسية .

– الاشتراكية أو الاجتماعية هي المبدأ المنقذ للمجتمع ، وهي حتمية طبيعية لتطور المجتمعات ، تقوم على ناموس التكافؤ في القوى القائم على الصراع ، هنا يتدخل شميل ليهذب الصراع من أجل حماية المواطن البسيط ، و يطالب من الحكومة أن تمنع لصوص المجتمع وهم أصحاب رؤوس الأموال من طحنه ، أما ناموس التكافل ، فيعمل على تقاسم المنفعة على قدر العمل عملاً "بقانون الاقتصاد الطبيعي" ، وهو القاضي بأن كل شيء في الطبيعة منها و بها و إليها ، و لا شيء يضيع سُدى ، لذلك وجب استغلال طاقة كل فرد ، أي نافع و منتفع.

– الحرية عند شميل مقدسة ، لأنها طريق العدل في جمهوريته الديمقراطية ، هي نابعة بدورها من محبة الذات ، خيث تختار الذات بإرادتها الحرة أن تتشارك مع الاخر لتتحقق المصالح المشتركة ، و الحكومة المستبدة التي تتجاهل هذه الحقيقة باسم الدين ، مصيرها الفناء ، لأن بتجمع الذوات الحرة حسب " ناموس تجمع القوى الطبيعة " ، تحدث "ثورة الخواطر" التي هنا ، تُصبح ضرورة لطرد السم من جسم المجتمع .

– بحسب نظرية التطور، فإن كل القوانين و الشرائع ، هي مؤقتة نسبية ، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها ، و لذا يتم الاحتفاظ بالقوانين ما دامت تخدم تلك المرحلة ، و يتنبأ شميل أن كل الدول مستقبلاً – حسب قانون التنازع و الانتخاب الطبيعي و الأصل الواحد – ستنقرض ، و لن يبقى إلا وطن واحد عالمي ، يعيش تحت سقفه شعب واحد لا تفرقه الأديان و لا الأوهام ، يتنعم بالسعادة المشتركة و التسامح و كل هذا بفضل العلم الطبيعي .

من كل هذا ، نقول أن شميل بدأ تفسير وجود الكون ، من حركة زوبعية لجزيئات دقيقة في المادة ، وصولاً وطن عالمي ، يعيش فيه مواطنين عالميين ، يوحدهم العلم الطبيعي ، بهذه الرؤية الإنسانية ، ندرك أن شميل اهتم بالعالم الإنساني ، وبإسعاد الإنسانية جمعاء .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر :

1- شبلي شميل ، آراء الدكتور شبلي شميل ، دط ، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة ، 2015م.
2- شبلي شميل ، الحقيقة ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م.
3- شبلي شميل ، المجموعة ، الجزء الثاني ، د.ط ، مطبعة المعارف ، مصر ، دت .
4- شبلي شميل ، شرح بخنر على مذهب دارون ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م.
5- شبلي شميل ، فلسفة النشوء والارتقاء ، ط جديدة ، دار مارون عبود ، بيروت ، لبنان ، 1983م.
6- شبلي شميل ، كتابات سياسية واصلاحية ، تج أسعد رزوق، ط1 ، دار الحمراء ، بيروت ، 1991م.
7- شبلي شميل ، مباحث علمية واجتماعية ، دط ، مؤسسة الهنداوي ، القاهرة ، مصر ، 2020م.

قائمة المراجع :

1- أحمد برقاوي ، في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، دار البيضاء، المغرب ، 2015م.
2- أحمد محمد جاد عبد الرزاق ، فلسفة المشروع الحضاري ، الجزء الثاني ، ط1 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1995م .
3- إسماعيل مظهر ، ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء ، مؤسسة هنداوي ، 2014م .
4- ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798–1939 ، تر كريم عزقول ، د.ط ، دار النهار للنشر ، بيروت ، د.ت .
5- أورخان محمد علي ، تهافت نظرية داروين في التطور، ط1 ، دار البشير ، عمان ، 1998م.
6- تشارلز داروين ، أصل الأنواع ، تر إسماعيل مظهر ، دط ، مؤسسة هنداوي ، قاهرة ، 2018م.
7- حسن بن محمد حسن الأسمري ، النظريات العلمية الحديثة ، المجلد الثاني ، ط1 ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث ، المملكة العربية السعودية ، 2012م.
8- رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1973م.
9- رئيف خوري ، الفكر العربي الحديث ، د.ط ، مؤسسة هنداوي ، القاهرة ، 2020م.
10- سلامة موسى ، نظرية التطور وأصل الانسان ، د.ط ، مؤسسة هنداوي ، قاهرة ، د.ت .
11- عبد الإله بلقزيز ، الثقافة العربية في القرن العشرين ، ط2 ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2013م.
12- عبد الوهاب المسيري ، الفلسفة المادية و تفكيك الانسان ، د.ط ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت .
13- ماجد فخري ، الحركات الفكرية وروادها اللبنانين في عصر النهضة :1800–1922 ، د.ط ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1992م.
14- مجدي عبد الحافظ ، الحقيقة والتطور عند شبلي شميل ، ط1 ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2007م.
15- محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1990م .
16- مرتضى فرج ، الداروينية ، ط1 ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، 2017م.
17- مكي حبيب المؤمن وعلي عجيل منهل، من طلائع يقظة الأمة العربية ، د.ط ، دار الرشيد للنشر، العراق،1981م.
18- نبيل علي صالح ، المادية ، ط1 ، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية ، د.ب ، 2018م.
19- هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب ، ط2 ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1978م.

المجلات :

1- توفيق شومر ، النشوء والارتقاء في المقتطف ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد 26 ، العدد الثالث والرابع ، 2010م .
2- حسين عبد الزهرة الشيخ ، إشكالية العلاقة بين الدين والعلم في الفكر العربي المعاصر ، مجلة كلية الآداب ، العدد 99، د.ت.
3- رؤوف عباس حامد ، تطور الفكر العربي الحديث ، مجلة كلية الآداب ، د.ط ، جامعة القاهرة ، د.ت.
4- ريم منصور الأطرش ، العلمانية ، سلسلة أوراق دمشق ، عدد 03، مركز دمشق للأبحاث و الدراسات، د.ت .
5- سيد حافظ عبد الحميد بدوي ، الوعي التاريخي ومستقبل الحضارة ، مجلة كلية الآداب بقنا ، العدد 55 ، 2022م .
6- صالح شقير، الحضور الفلسفي في الفكر العربي الحديث ، مجلة جامعة دمشق ، مجلد 26 ، عدد الأول والثاني ، 2010م .
7- عبد الحفيظ عصام ، الفكر التربوي عند شبلي شميل ، مجلة الحوار الفكري ، عدد 01 جويلية 2001، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة ، دار الهدى للطباعة و النشر والتوزيع ، 2001.
8- يصل غازي ، تأثير الفكر العربي المعاصر بالفكر العلمي الغربي ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، العدد 68، دار المنظومة ، 2005م .
9- يعقوب صروف ، شبلي شميل ، مجلة المقتطف، مج 2 ، د عدد ، القاهرة ، 1971م .
10- يوسف حبيب ، دور شبلي شميل في الفكر العربي الحديث ، مجلة المعرفة ، العدد 135، مطبعة وزارة الثقافة ، 1973م.

قائمة المعاجم :

1- أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، تر خليل أحمد خليل ، ط2 ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ،2001م.
2- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج2 ، د.ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982م .
3- عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج1 ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، 2010م.
4- عبد المنعم الحنفي ، موسوعة الفلسفة والفلاسفة ، ج2 ، ط3 ، مكتبة مدبولي ، 2010م.
5- مراد وهبه ، المعجم الفلسفي ، د.ط ، دار قباء الحديثة ، القاهرة ، 2007م.

قائمة المطبوعات و الرسائل الجامعية:

1- شريف زروخي ، فلسفة عربية معاصرة ، مطبوعة جامعية ، تخصص فلسفة ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 ، الجزائر ، 2018 م .
2- عبد الله علي عمران ، التيار العلمي في الفكر العربي ، أطروحة ماجستير، كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، جامعة عمر المختار ،ليبيا ، 2008.
3- ماهر محمد سعيد درويش ، هجرة الشوام الى مصر ، أطروحة ماجستير ، تخصص تاريخ ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، 2